كتاب الدوحة



أريجُ الزّهر

كتاب أخلاقيّ اجتماعيّ أدبيّ

الشيخ مصطفى الغلاييني

أريجُ الزهر

يُوزّع مجّاناً مع العدد (110) من مجلّة «الدوحة» - ديسمبر - 2016

أريجُ الزهر

تأليف: الشيخ مصطفى الغلاييني

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف: صورة الشيخ مصطفى الغلاييني
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

أريجُ الزهر

كتاب أخلاقيّ اجتماعيّ أدبيّ

الشيخ مصطفى الغلاييني

كتاب الدوحة

إهداء الكتاب

جرت عادة السلَف، كما درج على ذلك الخلَف، أن يقدِّم المؤلِّف كتابه إلى رجل من رجال الأمّة الذين توفَّرت فيهم الملَكات الفاضلة، ونالوا نصيباً غير قليل من المصاعب في سبيل الخدمة العامّة. وقد فكَّرت فيمن أهدي إليه كتابي هذا، فكان أوَّل من مَرّ بخاطري وأوسطه وآخره شيخي وأستاذي عالم الشرق وفيلسوفه، وإنسان ناظره، الأستاذ الأمام «الشيخ محمد عبده» مفتي الديار المصرية، أكرمه الله.

فإلى روحه الطاهرة البارّة أهدي هذا الكتاب، اعترافاً بفضله عليَّ، وعلى الأمّة جمعاء.

المقرّ بالجميل

الغلاييني

بيروت: غرّة ذي الحجة، 1329هـ

مقدِّمة

حُبّ الظهور والبشر

وبعد، فقد فُطر البشر، منذ عُرِف البشر، على حُبّ الظهور. نعم، لولا حُبّ الظهور لما ظهر في هذا العالم الإنساني فضيلة، ولا بدت مأثرة، ولا أُثِرت منقبة، بل لولا حبّ الظهور لما ظهرت الأُمم، ولا تكوَّنت الجماعات، ولا تألَّفت الممالك، ولا انتظم شمل الاجتماع، بل ولا ظهر اختراع، ولا حُمِل يراع، ولا أُلِّف سِفْر، ولا جال أثريٌّ في قفر.

حُبّ الظهور، وكلّ ذي روح

حُبّ الظهور لا يقتصر على جنس البشر، بل هو غريزة في كلّ ذي روح؛ فالخيل في خيلائها وهبواتها، والآساد في زهواتها ولهواتها، بل النمور في نزواتها، والذئاب في غزواتها، والهجان في سبحاتها، والغزلان في شنجاتها، بل كلّ ما شَرد وأَنِس يحاول أن يظهر بأبدع مظهر:

الطيور مع أسرابها، والدواجن مع أضرابها، الحمام مع إلفه، واليمام مع حِلفه، والنعام مع صنوه، والغراب مع قنوه، بل سائر ما طار ودرج، كلّها تتسابق على الظهور، حين الطير، وحين السير.

النحل في خليَّته، والنمل في سريَّته، بل سائر ما هبَّ ودبّ، وهام وعام، يحاول أن يطول السِّماك، ويطاول الأفلاك، دون أن يبالي بالهلاك، فالنحل يحزب الأحزاب، ويتَّخذ اليعاسيب، وقد يهاجم بجيشه الإنسان، والمستبسل من جنده في الهجوم هو أكثرهم حبّاً في الظهور؛ ومن ثَمَّ يتبوّأ مقاماً محموداً في أمَّته، فيقدم أمام الصف، يوم الزحف، وحين الحتف، وهو بين هذا وذاك يجد لذّة لا تُكَيَّف بكيف، ولا توصف بوصف، أمّا النمل، وهو الضعيف، فقد يدفعه حُبّ الظهور إلى السموّ بجناحيه إلى الجوّ غير مبال بالوبال، هازئاً بقول من قال:

إذا ما أراد الله إهـــــلاك نمـــلة ســـمت بجناحيها إلى الجوَّ تصعد

وقد يحمل أضعاف أضعافه على قارعة الطريق تحت الحطم واللطم، غير مبالٍ بتحطيم سليمان، ولا تلطيم سامان.

حُبّ الظهور والمدنيّات

هذه الموهبة الفطرية، في كلّ ذي روح، هي سائقة العلاء، وداعية الارتقاء، وهي أسّ الأساس لعمران هذا الكون؛ لأنها رائد الفضائل ودليل المجد، ولولاها لما وصلت المدنيّة المادّيّة إلى حالتها الحاليّة، فإن الأمّم كالأفراد؛ فكما أن الفرد يحاول الظهور بين أقرانه بما يراه حسناً في نظر الجماهير، فكذلك الأمم تحاول أن تظهر على غيرها بما تراه حسناً في نظر الجماهير.

فحبّ الظهور هو الذي مُدِّنت به المدن، ومُصِّرت الأمصار، وأنشئت المعاهد

والمشاهد، وبُنِيت الآثار الخوالد. وما مدهشات الأهرام، ومعجزات بعلبك، وبدائع الزهراء، والحمراء، وعجائب أنس الوجود، وغرائب تدمر وطرائف بابل ولطائف سامرّا إلّا أثرٌ من آثار حُبّ الظهور.

حُبّ الظهور والإنسانية الراقية

مهما حاولت الإنسانية الراقية أن تتبرَّأ من هذه الغريزة الطبيعية، ومهما حاول زعماؤها وقادتها إظهار أنهم يخدمون في زعامتهم وقيادتهم، أو- بعبارة أصرح: «في ظهورهم وتفوُّقهم على غيرهم»- الإنسانية البحتة فلن تقدر، بل لا يقدرون أن يحاولوا؛ كونهم بخدمتهم التي سادوا بها وظهروا قد خدموا أنفسهم، قبل أن يخدموا غيرهم.

نعم، إن هذه الخلّة هي خلّة شريفة، حضَّت عليها الشرائع الإلهية، والوضعية. ومتى سادت، وحاول كلّ إنسان أن يخدم نفسه خدمة يسود بها ويظهر، سادت المواهب العالية، والمظاهر السامية، وأصبح كلّ إنسان أمّة بنفسه، ومن ثَمَّ يرتقي النوع البشري الارتقاء الذي يحلم به الفلاسفة، ويطمح إليه الأخلاقيون، وترمي إليه الشرائع.

ولكن، هيهات! فإن طبيعة النوع- أيضاً- تناديهم من الشقّ الثاني، أو من وراء تلك الحجب الكثيفة، إن ذلك الارتقاء الموهوم يتطلَّب مستقبلاً بعيداً جدّاً هذا إذا ظَلّ الارتقاء الإنساني مطَّرداً عى ما نراه، ولم يجتح هذا الكوكب الأرضيّ جائحة سماوية، أو يصدمه مذَنَّب كمذنَّب هالي، فيجعله كالهباء، تذروه النكباء.

حُبّ الظهور والعرب

يتفاوت حُبّ الظهور في الأمم والأفراد بتفاوت الغرائز والفِطَر، فأكثر الأمم آثاراً وأعمالاً هي أكثرهم حبّاً في الظهور، وأحرصهم على السيادة، وأكثر الأفراد خدمة وأعمالاً هو أكثرهم حرصاً على إظهار نفسه وتسيُّده بين بني جنسه.

وعلى هذه النسبة، كان أعرق الأمم حبّاً في الظهور مَنْ لم تزل لأبنائها، حتى اليوم، آثار مدنيّة باقية، وأسبق الجميع إلى هذه الآثار هي السابقة في هذه الموهبة العالية.

يقول المؤرِّخون الأثريّون، في هذا العصر: إن أسبق الأمم إلى المدنيّة وتدوين الآثار، من شرائع وأنظمة وقوانين وبناء مدارس ومعاهد، هم عمالة العراق العرب، أو ما يسمّيهم العصريون «الحمواربيِّين» الذين حكموا على الدولة البابلية العراقية قبل ميلاد عيسى- عليه السلام- بزهاء ألفَيْن وخمس مئة سنة، تقريباً، كما ظهر، مؤخَّراً، في آثار بابل وآشور.

فالعرب- إذاً- أسبق الأمم إلى الظهور، ولكن لم ندرِ ما طرأ علينا- نحن أخلاف أولئك الأسلاف- حتى أُسدِلت علينا الحجُب، وأُرخيت الستور، وأصبحنا مثلاً في الخمول منذ عصور، ولعل دماءنا النقية اختلطت بدماء الأخلاط والأوشاب من شُذّاذ الأمم وشُرّاد الآفاق، فأصبحنا على ما ترى اليوم، ألسناً عربية في أشلاء رومية، وأدمغة فارسية، وأطمار إفرنجية، ونحن، مع ذلك، نزعم العراقة في العربية، وهي وذمة العرب، لم تبرح أباطح الحجاز وأبارق تهامة، بل لم تبارح مشارف الشام، وأنحاء العراق، وأغوار اليمن.

من يصدِّق «وكلّ أمّة تدعي السبق في المدنيّة» أن الأثريِّين اكتشفوا، منذ أعوام، في «زيبارا»، مدرسة عربيّة لتعليم الأطفال، وهي أقدم مدرسة في تاريخ التمدُّن القديم، يرتقي تاريخها إلى أربعة آلاف سنة. وقد رأوا بين أنقاضها ألواحاً من الآجرّ، مكتوباً عليها دروس للأطفال في الحساب والهجاء وجداول الضرب، ورأوا كثيراً من الكتب والرسائل المنقوشة على الأحجار والآجرّ، وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والأرصاد الفلكية والنصوص التاريخية وأمثالها[1]، ثم يجد الأُمّة العربية في القرن العشرين قرن المدارس والمعاهد لا تملك كلّها مدرسة يصحّ أن يُطلق عليها نصف مدرسة أمام الكلّيّات والجامعات، ومع ذلك نفاخر ونكاثر، ذاهلين عن قول الشاعر:

وما الفخــر بالعظــم الرميم وإنما فخــار الذي يبقي الفخــار بنفسه

من يصدِّق، وكلّ الأمم أكفاء وأقران في مقوِّمات العمران، أن العرب الذين نسمّيهم جاهلين هم أرقى من العرب المدنيِّين، الآن. وإليك بعض البيان:

يعلم المطَّلع على فلسفة اللغات وكيفية وضعها أن اللّغة عنوان الأُمم، أو أنموذج حالتها، فاللّغة التي تكثر فيها أسماء السيف أو الرمح أو الجمل أو الأسد، مثلاً، يكون أهلها- بالطبع- عانوا هذه المسمّيات كثيراً، وشاهدوها، وعاشوا معها، وتفنَّنوا في أسمائها على حسب أوصافها، والألفاظ لا تتولَّد بسائق الحاجة والفطرة إلّا للتعبير عن المعاني، كما هو معروف بداهةً.

(1) تاريخ آداب اللغة العربية.

إذاً، فالأُمّة التي تكثر فيها الألفاظ الاجتماعية، والسياسيّة، والعمرانية، والأخلاقية تكون- بالطبع- عانت الاجتماع والسياسة والعمران والأخلاق، كما أن الأمّة التي تكثر فيها أسماء الملابس والمآكل، مثلاً، تكون لبست تلك الملابس، وأكلت تلك المآكل.. وهكذا.

فاللغة العربية الموجودة فيها، منذ أيّام جاهليَّتها، كثير من الألفاظ لضروب الاجتماع والجماعات، على اختلاف الغايات والاجتماعات، ممّا لم يقدر العرب المتمدّنون على زيادة لفظ واحد عليها من عندهم، وذلك كلفظ كلٍّ من الشعب، واللجنة، والجماعة، والقبيلة، والفصيلة، والرهط، والعشيرة، والزرافة، والسرب، والكوكبة، والوقم، والنفر، والشرذمة، والعصابة، والموجود فيها لأماكن الاجتماع كالنادي، والمنتدى، والندوة، والمحفل، والمجتمع، والمأتم والمجلس، والموسم، والموجود فيها للتعبير عن أسماء الكتب على اختلاف أنواعها كالسِّفْر للكتاب الكبير، والقمطر لكتاب الأعمال، والوصير لصكّ السجلّات، والرهنامج لكتاب الطريق الذي يهتدي به ربّان السفن، عدا ألفاظ الزبور والرقيم والضبار والدفتر، والموجود فيها للتعبير عن القلم مثل اليراع والمرقم والأنبوبة والأسلة والجلف، وعن الورق مثل الطرس والقرطاس والمهزف والرفّ والطلس والمجلّة والصحيفة، والموجود فيها للتعبير عن الألفاظ الاقتصاديّة مثل الربا والتلاد والركاز والضمار، والطارف والتالد من أسماء المال، عدا نفس الذهب الذي له أكثر من عشرين اسماً، وعدا أسماء السفن والطرق والبقاع الدالة على الاتِّجار والأسفار، وعدا أسماء عديدة للرياح على اختلاف مهابّها، الدالّة على معرفة الظواهر الجوية، وذلك كالنكباء للريح بين ريحَيْن، والمتناوحة المختلفة المهابّ، والنافخة للمبتدئة بشدّة،

والزعزع والإعصار للشديدة، وعدا أسماء كثيرة للموازين وأدوات الصناعة وأواني الأطعمة والرياش واللباس، وألفاظاً كثيرة للعواطف والأخلاق والشعور السامي[1]... لا يقال عن أهلها «جاهليون»، على أن آثارهم في حضرموت وسائر البلاد اليمانية والعراقية لم تنزل ناطقة بعلمهم وعراقتهم في التمدُّن والعمران.

هذا المجموع

لسنا، الآن، في صدد بيان مدنيّة الأمّة العربية قبل الإسلام، ولا مدنيَّتها بعد، وإنما موضوع هذا المجموع الذي هو استنفار وحضّ لناشئة هذه الأمّة الكريمة على الظهور بمظهر الأمّم الراقية، بحسب ما أشرنا في صدر المقال تشبُّهاً بأسلافهم الأوَّلين ومجاراة لمعاصريهم المتأخِّرين «بالمعنى اللغوي، لا العصري»، دعانا إلى أن نشير إلى موضوع الظهور والمدنيّة استنفاراً وحضّاً، بحسب موضوع هذا المجموع.

هذا المجموع هو «زهر» شبيبة فاضلة فاح «أريجها»، إذ لم تدنِّسها أوضار الغرب، ولم ينهكها ذبول الشرق فهو «زهر» أخلاق وفضائل، بل هو غيرة مجسَّمة، وحماسة مقتنمة تريد النهوض بناشئة الشرق، والإشراف بهم على مدنيّة الغرب، شأن أصحاب النفوس الكبيرة التي تريد الصعود من مدارج المجد، والظهور من شرفات العلاء.

(1) راجع: المخصَّص، ولطائف اللّغة.

صاحب هذا المجموع

الشيخ مصطفى الغلاييني، صاحب هذا المجموع، توسَّمت فيه النبوغ منذ أوَّل يوم درس فيه قواعد العربية، فإنه استظهرها، حفظاً وفهماً، في مدّة شهرين ممّا يندر مثيله بين الدارسين، وكان ينظم الشعر بسائق السليقة وهو يافع لم يبلغ أشدّه، وقد توسَّمت فيه التفوُّه في الخطابة منذ ذلك الحين، أيضاً؛ نظراً لذلاقة لسانه، ورشاقة بيانه، ثم ظلّ يتدرَّج في مدارج النموّ بنفس عصامية، وهمّة استقلالية، إلى أن ظهر كلّ ما توسَّمت، ووقع كلّ ما تفرَّست.

موضوعات هذا المجموع

على أن هذا المجموع هو أحسن مثال حسّيّ ينطق بحالة صاحبه الروحية، فإنه طرق باب التربية النظرية في مقالة «أيُّها الإنسان»، كما طرق التربية العملية في مقالة «التربية أساس النجاح»، فجمع بين التربيتَيْن، وفاز بالحُسنيَيْن. وقد انتقد الأخلاق والعادات في مقالة «العادات»، وبَيَّنَ كيف تكون الحياة سعيدة في مقالة «سعادة الحياة»، وفصَّلَ كيان هذه السعادة في مقالة «الثورة الأدبيّة أو ثورة المبادئ والأخلاق». ولم تقتصر كتابته على الأخلاقيات، بل أصابها رشّاش من السياسيات في مقالة «مجلس الأمّة» و«قحط رجال أم قحط وجدان»، وغيرهما. وكأني به يحاول أن يدخل في غمار كلّ بحث، ويطرق كلّ باب.

ومن أحاسن قوله، في مقالة «الاستقلال الشخصي والاعتماد على النفس»، هذه الجمل:

«إن الحكومة هي تابعة للأمم، رقيّاً وانحطاطاً، فمتى كانت الأمّة منحطّة انحطّت حكومتها، القسر، ومتى كانت الأمّة راقية ترقّت معها، بحكم الضرورة، لأن الحكومة هي صورة أفراد الشعب المحكوم ومثاله وخلاصته؛ إذ هي منه وله، على كلّ حال. فإن اتَّفق أن الحكومة كانت أرقى من الأمّة فلا تلبث أن تنحطّ وتتقهقر إليه، والعكس بالعكس: «كما تكونون يُوَلّى عليكم»، فإن كانت الأمّة مستقيمة ميّالة إلى العدل والحرّيّة والفضائل حكمت بحكومة لا عوج فيها ولا استبداد ولا جور ولا رذيلة، وإن كانت الأمّة جاهلة فاجرة لا يريد أفرادها العدل ولا يخضعون للحقّ، حُكمت بحكومة جاهلة فاجرة ظالمة مستبدّة عوجاء لا تميل إلى الحقّ، ولا تخضع للعدل. والخلاصة أن أخلاق الأمّة- إن خيراً وإن شراً- تنطبع في مرآة وجدان الحكومة.

فإن أرادت الأمّة أن يكون لها حكومة عادلة ودولة قويّة، فعليها بإصلاح أخلاق أفرادها وتعويدهم الفضيلة والحريّة الصحيحة وحبّ العلم وغير ذلك من الصفات والملكات العادلة، ومتى تَمّ لها ذلك وصار الشعب عادلاً عالماً متربِّياً أضحت الحكومة تابعة له رقيّاً وعدلاً، ومتى أضحت الحكومة كذلك انقطعت أسباب الرشوة والحكم بغير الحقّ، وكلّ هذه الأسباب المتقدِّمة يدعو الشعب لمساعدة الحكومة مادّيّاً وأدبيّاً. ومتى استغنت الحكومة، وكانت متنزِّهة عن الرذائل كما قدَّمنا، تسعى لجمع شتاتها، وإصلاح فاسدها، وتقوية جيوشها وأساطيلها، حتى تصبح دولة مرهوبة السطوة، مرعيّة الجانب».

قوله في المقالة نفسها:

«القوانين لا تجعل الناس أحراراً، مهما كانت فاضلة، غير أن الناس قد اعتادوا أن يعتقدوا أن خيرهم ونجاحهم مسبَّبان عن الأنظمة التي تُحكم بها بلادهم، وهم مخطئون في هذا الاعتقاد خطأ بيِّناً لا يغتفر ، إذ أيّة فائدة من القوانين إن لم تكن نفوس الشعب مستعدّة لما تحويه من الأصول والموادّ؟ بل أيّ نفع من النظامات إذا لم يوجد لها حاكم أمين ينفذها بكلّ صدق واستقامة، فالقوانين لا تجعل الخامل ذكيّاً ولا الكسول مجتهداً ولا فاسد الأخلاق طاهراً كاملاً، والأنظمة لا تمحو الجرائم، ولا تردع الناس عن المنكرات، ولا تخفِّف عنهم الويلات، ولا تجعلهم سعداء، إلّا اذا أتاح لها حكّام أمناء، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». وما للقوانين من فائدة عملية سوى أنها تكون بمثابة المرشد للشعب والدليل للحاكم، يستعين به على إجراء العدل والحكم بالحقّ حتى لا يميل ولا يجْنف.

فالنظامات التي يحكم بها قوم أُولو نصفة وعدل، وذوو وجدان حرّ طاهر، تكون وسيلة لجعل المحكومين سعداء، وتمكِّنهم من اكتساب ما يجعلهم في سعة من العيش ورغد من الحياة، وتسهِّل لهم اجتناء ثمرة أعمالهم وأفكارهم.

والنظامات التي يحكم بها قوم أولو جَنَف واستبداد، وذوو وجدان خبيث يميل مع الهوى، تكون سبباً لشقاء الشعوب ووسيلة ليأسهم من الحياة الطيِّبة والعيشة الراضية، مهما كانت تلك النظامات عادلة وجيِّدة؛ ذلك لأن الحكّام من هذه الطبقة يؤوّلون النصوص على حسب رغباتهم ومشتهياتم، وعلى ما يوافق هواهم ومنفعتهم الشخصية.

وقوله في مقالة «أساليب الكلام العربي»:

«طلّاب الكتابة البلاغية كثيرون، ولكن الواصلين إليها والضاربين بين فيها بسهم قليلون. وما ذلك إلّا من جهل الطريق المؤدِّية إليها، فإن كثيراً من طالبيها يعمدون إلى مطالعة كتب، ليس فيها من بليغ الكلام إلّا النزر اليسير، حتى إذا نالوا منها منالهم، أخذوا يتحدُّونها، ويحيكون على منوالها، فتكون كتابتهم مغلطة ومعانيهم سخيفة- وهؤلاء على ضربَيْن: ضرب يعمد إلى أمثال كتب المقامات والرسائل التي أنشئت بعد جفاف رونق البلاغة والكتابة الصحيحة، فهم مغرمون بالمجازات الساقطة والبعيدة، والتساجيع المتكلَّفة الباردة، وليس في كتابتهم معنى يفيد، ولا مغزى تنعش به الأرواح، وضرب يعمد إلى بعض المؤلَّفات العصرية أو المترجمة بالعربية عن كتب الإفرنج التي ليس عليها أثارة من الأسلوب العربي الصحيح، فيحتذون بأسلوبهم مثالها، فتكون كتابتهم لا عربية تُعرف، ولا إفرنجية تُوصف، لأن الألفاظ التي يركِّبون منها جملهم عربية، غير أن أسلوب التركيب إفرنجي محض؛ وذلك ممّا يقضي على اللغة العربية ويرجع بها إلى ما وراء.

وأعجب من ذلك أن هذا القسم من الكُتّاب يظنّ أن هذا السلوب هو الذي يجب أن يكون عليه الإنشاء العربي، لسهولة فهمه على القارئين، ولكنهم مخطئون في هذا كلّ الخطأ، لأنهم، إن كانوا يفهمون بالأسلوب العربي البليغ أن يكون الكلام محشوّاً بغريب الكلمات والتراكيب السمجة المعسلطة، فهو وهم باطل، ولا يقول به إلّا من لم يفهم البلاغة العربية حقّ فهمها، كما شرحناها في هذا المقال.

نحن نعني بالأسلوب العربي أن يكون الكلام بعيداً عن مناحي العجمة، مجرَّداً عمّا يُخلّ بالنحو واللغة وأصول البلاغة. والكلام إذا كان على هذه الصورة فهو مفهوم عند العامّة وعند الخاصّة، بل- ربّما- كان أدعى إلى الفهم من كلام كثير من الكُتّاب الذين ينحون في أساليبهم مناحي الإفرنج».

ولا يقدح فيه أنه يوجد في بعض مقالاته أفكار شاذّة أو متطرِّفة أو آراء تناقض ما ورد له في غيرها من المقالات، فإن ذلك شأن الضعف البشري، والإنسان تتقاذفه تيّارات التقلُّب في كلّ حين. وهذا ابن مسعود، من أكبر علماء الأمّة كان يقول لأحد مريديه - كما روى عنه الشعراني في الميزان-: لا تكتب عني كلّ ما أفتي به، وإنما يُكَتب الحديث. ولعلّ الرأي الذي أفتي به اليوم أرجع عنه غداً». فإذا كانت الفتوى التي تبنى على أصول الدين يُرجَع عنها لظهور دليل واضح من الدليل الأوَّل، فأولى بالاجتهاد الفكري أن يرجع عنه صاحبه حين ظهور غيره أجلى منه، على أن هذا المجموع لم أرَ فيه كثيراً من أمثال تلك المقالات المعنيّة، وهو دليل بأنه أراد إغفالها قصداً.

أمّا نظمه فأكثره منشور في الصحف السيّارة، ومن أحاسنه قوله في قصيدة «السلم والحرب»:

يا بني الظلم كم تبيعون في الحر ... ب دمـــــاء الأنام بيع الماءِ!

أحســـبتم أن البــرايا شـــياهٌ ... لم تُكَـــوَّن إلّا لسَفك الدماء؟

فـرميتم بها إلى حيث شـــئتم ... لهــوًى في النفوس غير خفاءِ

ما أرى هذه الجيوش تذوق الــ ... مـــوت إلّا لشـــهوة الأُمراءِ

وقوله في قصيدة «الحرب والمنطاد»:

ذبح القوم في ســـــبيل مُناهم كلّ عطـــفٍ ورحـــمةٍ وحـياءِ

لم يُنلهم ما يجـــتنون على الأر ضِ مـــــراماً فحلَّقوا في السماءِ

واستقلّوا في الجوّ حـــيث يذيقـو ن الأعـادي من فوق كأس البلاءِ

فالمناطيد ســـفنهم في الهـــواء خـــــارقات بهـــم خلايا الفضاء

فهي تجري بهم إلى حـيث شاؤوا في أمـــــان ومنـــعةٍ واعـتلاءِ

درّعوها خوف العُداة فســـارت لا تبـــالي قـــنابل الأعـداءِ

فهي تعدو يوم النضـال عـــيوناً تكشـــف السرّ عن حمى البؤَساءِ

لســـت أدعو تلك المنـــاطيد إلّا رائـــدات المنـــون والأرزاءِ

.....

يا بني الغرب، حسبكم ما صنعتم قـــبلها من وســـائل الإفـــناءِ

من مبيد الأقـوام من كلّ ما يُلـ ـبس هذا العمـــران ثـوب العَفاءِ

أتضـــيق الغبراء دون منـــاكم فعـمدتم- يا قـــوم- للخضراءِ

أم تضيق البحـور وهي بحـور فسلكتم أسطولكم في الهـواءِ؟

أين تلك العـلوم قد علَّـــمتكم أن تُذيقوا الأغـيار كأس الشقاءِ؟

أن تذلّوا الضـعف أن تسـتهينوا بأنـاس من كلِّ عـيب براءِ
أن تعدُّوا رجـالهم كـعبيد والنسـاء- استهانةً- كالاماءِ؟!
بئس تلك العـلوم إن أرشـدتكم لفعال الوحـوش في البيـداءِ
ما أراكم إلّا ذئـاباً ظـننتم أن تلك الضـعاف ثلّةُ شـاءِ
فَأَبحـتم ذاك الحـريم وأُبتم ونبذتـم عظـامها بالعـراءِ
خـفّفوا ويلة الشرور وعـانوا أن تـروهم بمـقلةٍ شـوساء
وارفعوا الظلم عن حماهم وفكّوا الـ ـقـيد عـنهم ينجوا من الغماءِ

وقوله في القصيدة التي قالها يوم موافاة الأسطول العثماني إلى ثغر بيروت:

سـارت فماغير عين الله ترعـاها وما سـوى قـلبنا الخفّاق أجراها
نار القلوب التي بين الجـوانح قد أجـرت سفائنها والوجد اذكاها
ترسو وتجري بعُرض اليمّ سـابحةً باسـم المهـيمن مجراها ومرساها
تجري، وأن هي ترسـو ترسُ رابضة كالأُسْـد ترقب في الغابات أعداها
حتى إذا بصُرت بالخطب يحـفرها سـرٌ من الله ضـمَّته حشـايا ها

ومنها:

نحن الألى مدَّنوا الأقوام فانقشـعت عـن أفـقـهم ظُلَمٌ كانت تغشّاها

فأصـــبحوا ودليل النجـــح قائدهم حتى امتطـوا من ذرى الجوزاء أعلاها

كانوا بقوا في ظلام الجهل يســترهم لولا فضـــــائلنا الغـــرّاء لولاها

بالاتِّحاد وبالســـــعي الحـــثيث إلى كســـب المعـالي دنت منهم مطاياها

هم بالعلوم وجهد النفـــس قد بلغوا من المكـــارم أدنـــاها وأقصـــاها

ونحن- يا قوم- من كنّا أســـــاتذة لهـــم غـــدونا وكأس الذلّ نُسقاها

عار علينا إذا لم نُحـــي أنفســـــنا يا قـــــوم، من بعد ما لاقت منایاها

بالعلم والسيف أحيوا مجدَكم، فهما للمجـــــد والبـــأس والعليا سناماها

فالغـرب يرقـــب منّا غِـــرّةً فمتى لاحـــــت له فرصـــة لم يـــرجُ إلّاها

جاست بنوه خلال الدار واقـــتحمت بـــلادنا، فهي مـــبغاها ومـــــرماها

لكن أبى الله، والآساد تحرســـــها أن يبـــــلغ الغـــرب سناً من ثناياها

هل يبلغ الغـــرب منـــها مأمـــلاً ولنا قـــــلبٌ، إذا نازلـــته الصـــمُّ أرداها؟

فنحن نحن الألى، إن جاش غـــاربنا فكـــــالأُسود رأت في مـــهمهٍ شاها

.....

يامعشر العُرب، يا أهل الحَـــــميّة، يا مَنْ لم نجد لهمُ في الناس أشباها

هذي بنوالترك وافتكم تصـــافحكم بداركـــــم، بيدٍ فاحت خزاماها

فإن يمدُّوا لكم- يا قــوم- أيديهم ودّاً فـــــمدّوا قـــلوباً طاب ريّاها

فالترك والعُرب- إخوان- وجامعة الدين الحـــنيفي ضمَّتهم حناياها

فمــن يمدّ يـــــديه كي يفـــرِّقهم شُــلَّت يداه، فعن سبل الهدى تاها

فالاتِّحاد- بني الأوطـــان- فهو لنا عــزٌ به تــردُ الأوطـــــان سُقـياها

إن اتِّحـــادكُمُ تبغون ترقـــية الـــ أوطـــان يُرضـــي رسول الله واللهَ

وقوله من قصيدة يذكر فيها فظائع الإيطاليِّين في طرابلس الغرب:

أين الشهامة؟ أين العدل والشـمـمُ؟ يا أمّةغضـــــبت من جورها الأممُ

ياللمـرؤة من قـــوم زعـــــانـفـة لؤم الطـــباع، لهم بين الورى عَلَمُ!

طاشت حلومُهمُ- والبغي مـــرتعُه وخم- فعمَّت سماء المغرب الظَّلَمُ

فالسلم مضطربٌ، والأمن مستلَبٌ والبرّ محـــــــتدم، والبحر مضطرمُ

أإن فررتم ونار الغيظ تحـــرقكم والـذلّ يتبعـــــكم والخـذل والندمُ

تُقتِّلون شيـــــوخـاً ما لهـــا وَزَرٌ وصـــــبيةونسـاءمـالـهـاعـصـمُ

ياللفظاعة من (روما) وما صـــنعت ضلَّت بنوها، وعن سبل الرشاد عُموا!

لوكان فيكم- بني الطليان- من شرفٍ لم تثـــأروا من ضعاف شِبْهها النعمُ

هَلّا صـــــبرتم على خطب ألَمَّ بكم والسيـــــف يعمل والأرماح تزدحمُ

والجند تقتلكم، والعُرْب تذبحـكم والموت يخطب، والهامات تنحطمُ
ليس الشجاعة قتل الشيب عن أممٍ عـارٌ بأن تقتل الأطفال والحرمُ

ومنها:

جئتم بجيشكُم الجرّار يحرسه الـ أسـطول، تقذف منه النار والحممُ
فكان ما كان ممّا فلَّ عـزمكمُ فالجـمع مفـترق والجيش منهزم
وعـدتمُ وغمام الخـذل عَمَّكمُ وأبتُـمْ ورمـال المقـفرات دمُ
فكلْكم وهو بالخـذلان ملتحـف «قد استوت عنده الأنوار والظلمُ»
تركتم الجـيش للغربان تُطـعمه فعـاف مآكـله الغربان والرخمُ
ماذي الجبانة- ياطليان- لارفـعت من بعـدها لكم نحو العلى قممُ
ولا لقـيتم سـوى ذلٍّ وأيلـمةٍ ولامشـت بكم نحو المنى قدَمُ
فنحن قوم إذا ما استُغضِبوا غضبوا لكنـهم يكرهون الظلم إن ظُلموا
فالعدل شيـمتنا، والبأس عادتنا والدين مرشـدنا، والحلم والشمَمُ
فقد حمـلنا على أوباش «رومية» فـغـرَّهُمْ أننا سـلمٌ وأنـهم
وقد صـبرنا كراماً عَلَّ طيشـهم يخـفّ، فازداد عند الصبر طيشهمُ
جاؤوا بأغنامهم ترعى بسـاحتنا وإننا أُسْـدُ ذاك البرّ، لو علموا

«ومن رعى غنماً في أرض مأسدة» مات الرعاء، وبادت تلكم الغنمُ

وبالجملة، فإن هذا المجموع جدير بأن يقتنيه النشء، ويطالعوه، ويعملوا بما فيه من الفوائد الثمينة؛ فإنها فيه كنز لا يفنى.

قَدَّمها

صديق المؤلِّف، الأستاذ الشيخ

محـــيي الدين الخـــيّاط

نهج البلاغة
أو أساليب الكلام العربيّ

نقرأُ كلامَيْن مختلفَيْن في الأسلوب، متَّفقَيْن في المعنى، فنجد لأحدهما لذّةً لا نجدها في الآخر، ونشعر بروح تتجلّى فيه، لا نحسُّ بها في الثاني، مع أن موضوعهما واحد، والغاية التي يرميان إليها واحدة. وإذا أردنا أن نبحث عن سرّ الأمر، فلا نجد له من سبب إلّا شيئاً واحداً، هو اختلافهما في الأسلوب.

فعلى الأسلوب مدار البلاغة؛ فمتى كان الأسلوب سامياً، والمعنى حسناً صحيحاً، فهناك الكلام البليغ.

والأساليب ثلاثة: عالٍ، ووسط، وسافل، فعلى الأوَّل والثاني مدار البلاغة، وفيهما تتفاضل البلغاء. ومرجع ذلك كلّه إنّما هو إلى تخريج الكلام على ما تقتضيه الحال، ويستدعيه المقام.

كثيرٌ من الناس يرغبون في أن يكونوا بُلغاء، ويسعون جهدهم ليجعلوا كلامهم من الأسلوب العالي، ولكنهم يجهلون السبيل الموصلة إلى ما يقصدون إليه: فمنهم من يظنّ أن بلاغة الكلام إنّما هي بالاكثار

من غريب الكلام وحوشيه، والإتيان بالوفير من المجازات والكنايات، خصوصاً ماكان منها بعيداً غريباً.

ولو كان ما يظنّون صحيحاً، لم يبق من مغزًى ولا فائدة من الموضوع المهمّ الذي عليه مدار علم المعاني، وهو (مقتضى الحال)، ذلك الأمر الذي لا يمكن لأحد أن يكون بليغاً إلّا بمراعاته.

البلاغة أن ينظر المرء إلى الموضوع الذي يريد أن يكتب أو يخطب فيه، وإلى القوم الذين يكتب إليهم أو يخطب فيهم، ثم يعمد إلى ما تقتضيه حال السامعين والقارئين، وحالة الموضوع الذي يكتب فيه، ويصوغ له من الكلام ما يطابق المعنى الذي يريده، ويناسب حال من يقرأ كتابه، أو يسمع خطابه. فإن راعى ذلك مع فصاحة الكلام المعروفة عند أرباب المعاني، فهو الكاتب البليغ، والخطيب البليغ، لأن الكلام إنما هو قوالب للمعاني، والغاية منه إفهام السامع أو القارئ ما يريده المتكلّم أو الكاتب من الأغراض التي تجول في نفسه، وتمرُّ بخاطره. فمتى عرف أن القصد من الكلام هو هذا وجب على الكاتب، أو الخطيب، أن يكون كلامه حسب الحاجة، مع مراعاة حال السامعين والقارئين، فيأتي بالكلام على المناحي والأغراض التي حملته على الكلام أو الكتابة. وإلّا كان كلامه من الفضول الذي لا يأتيه كاتب أو خطيب بليغان.

طلّاب الكتابة البلاغية كثيرون، لكن الواصلين إليها والضاربين فيها بسهمهم قليلون. وما ذلك إلّا من جهل الطريقة المؤدِّية إليها؛ فإن كثيراً من طلابها يعمدون إلى مطالعة كتب ليس فيها من بليغ الكلام إلّا

النزر اليسير، حتى إذا نالوا منها منالهم، أخذوا يتحدّونها، ويحيكون على منوالها، فتكون كتابتهم معسلطة ومعانيهم سخيفة- وهؤلاء على ضربين: ضرب يعمد إلى أمثال كتب المقامات والرسائل التي أنشئت بعد جفاف رونق البلاغة والكتابة الصحيحة، فهم مغرمون بالمجازات الساقطة والبعيدة، والتساجيع المتكلَّفة الباردة، وليس في كتابتهم معنى يفيد ولا مغزى تنعش به الأرواح، وضرب يعمد إلى بعض المؤلَّفات العصرية أو المترجمة بالعربية عن كتب الإفرنج، التي ليس عليها أثارة من الأسلوب العربي الصحيح، فيحتذون بأسلوبهم مثالها، فتكون كتابتهم لا عربية تُعرف ولا إفرنجية تُوصف؛ لأن الألفاظ التي يركِّبون منها جُملهم عربية، غير أن أسلوب التركيب إفرنجي محض. وذلك ممّا يقضي على اللغة العربية، ويرجع بها إلى ما وراء.

وأعجب من هذا أن هذا القسم من الكتاب يظنّون أن هذا الأسلوب هو الذي يجب أن يكون عليه الإنشاء العربي، لسهولة فهمه على القارئين. ولكنهم مخطئون في هذا كلّ الخطأ لأنهم إن كانوا يفهمون بالأسلوب العربي البليغ أن يكون الكلام محشّواً بغريب الكلام والتراكيب السمجة المعسلطة، فهو وهم باطل، ولا يقول به إلّا من لم يفهم البلاغة العربية حقّ فهمها، كما شرحناها في هذا المقال.

نحن نعني بالأسلوب العربي أن يكون الكلام بعيداً عن مناحي العجمة مجرَّداً عمّا يُخلُّ بالنحو واللغة وأصول البلاغة. والكلام إذا كان على هذه الصورة فهو مفهوم عند العامّة وعند الخاصّة، بل- ربَّما- كان أدعى إلى الفهم من كلام كثير من الكتّاب الذين ينحون في أساليبهم

مناحي الإفرنج.

رأيت كثيراً من أهل هذا الأسلوب يتشوَّقون إلى معرفة ما يهديهم لتكون كتابتهم موافقة للأسلوب العربي، حتى يخلِّصوا كلامهم من شوائب العجمة - فإلى هؤلاء أقول:

من أراد أن يكون كاتباً عربياً فعليه بالإكثار من مطالعة الشعر الراقي، كديوان الحماسة، والمتنبّي، والبحتري، وأبي تمام، وغيرها من دواوين وأشعار فحول الشعراء، ومطالعة كتاب الأغاني، والعقد الفريد، وكتب عبدالقاهر، والغزالي، والشيخ محمد عبده، وكتابات السيِّد محمد رشيد رضا، والزهراوي، واليازجي، والمنفلوطي، ومحمد كرد علي، والخيّاط، والحوراني، وغير هؤلاء الكتاب المجيدين، من قديم وحديث.

ومن أحسن ما ينبغي مطالعته، لمن يتطلَّب الأسلوب العالي، كتاب «نهج البلاغة» للإمام علي، رضى الله عنه. وهو الكتاب الذي أنشأت هذا المقال لأجله، فإن فيه من بليغ الكلام، والأساليب المدهشة، والمعاني الرائعة، ومناحي الموضوعات الجليلة، ما يجعل مطالعه- إذا زاوله مزاولة صحيحة- بليغاً في كتابته، وخطابته، ومعانيه.

كان هذا الكتاب دُرّة في صدف بعض المكتبات، حتى أُتيح لشيخنا المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، أن يطَّلع عليه، ويُبرِزه إلى عالم المطبوعات، ليكون أستاذاً للمنشئين ورائداً للبُلَغاء. وقد علّق عليه شرحاً جزيل الفائدة كبير المغزى. وقد طُبِع الكتاب بضع مرّات مشروحاً بقلم الأستاذ، عليه الرحمة. فاستفاد منه

أقوام كثيرون منهم كاتب هذه السطور.

فإلى اقتناء هذا الأثر العظيم، يا طلّاب الأسلوب العالي ورُوَّاد الكلام البليغ، فإن فيه ما ترغبون.

أيُّها الإنسان

لستَ ذلك الكائن الحيّ النامي، ولا هذه الهيئة وتلك التقاطيع، بل أنت ذلك الجوهر السامي المجرَّد عن المادّة، الهابط على هذا الهيكل من المحلّ الأرفع والمكان الأمنع. ولولاه لما كان لهذه الهيئة ما لها من التمييز عن الموجودات كافّة، فأنت- في الحقيقة- ابن السماء لا ابن الأرض، وأصلك من العلاء لا من الحضيض. وما وجودك على سطح هذه الكرة إلّا وجود ضيف، عن قريب يرحل، ويرجع إلى الأرض التي فيها نشأ، ومن تُربها نبت. فما بالك قد ادّعيت التملُّك، وزعمت أنك كلُّ شيء وأنت لا شيء، لأنك تحرجك البعوضة، ويقلقك الوهم، ويحرمك المنام البرغوث؟!

أهكذا يكون شأنُ من يخال أنه على كلّ شيء قدير؟؟ إن هذا لأمر نكير! ألستَ أنت الذي تأكل وتشرب، وتمرح وتلعب، وإن هاجتك الغُلمة هدرت دم شرفك دون تكسينها؟؟

ألستَ الذي إن أصابك زكام، قلت غداً أشرب كأس الحِمام؟؟ ألستَ الذي إن أصابتك مصيبة، ناديت بالويل والثبور، وعظائم الأمور؟؟ ألستَ الذي إن لم يجد ما يأكل أو يشرب، خارت قواه، وانحلَّت عزائمه، وعلم أنه ضعيف حقير؟؟

ألستَ الذي إن أصبح فقيراً معدماً، ذهب ما كان له من المقام الرفيع، وبَلِيَ ثوب كبريائه وعظمته، فالتجأ إلى من كانوا إليه يلتجئون، وطلب منهم الإحسان إليه، كما كانوا منه يطلبون؟؟

إذن، فليس لك من الأمر شيء، وما أنت إلّا كائن ضعيف فانٍ، وكلّ ما في يدك عارة مستَرَدَّة، فإيّاك أن تتصرَّف بها أو تدَّعي تملُّكها، فما هي إلّا وديعة لديك، فأحسن القيام على ما اُستودِعْت، واحفظْ كرامة المودِع، وإلّا انتزعها منك قسراً، وتركك حائراً بائراً، لا تلوي على شيء، ولا يعطف عليك أحد. إيهِ، أيُّها الإنسان!

ما هذه الكبرياء التي تلبسها؟ وما تلك العظمة التي تتقمَّصها؟ على من تتكبَّر؟ وعلامَ تتعاظم؟ أَلِأَجْل أنك ربّ مال وفير، وعقار كثير، وخدمة وأثاث، وقصور ذات رياش؟؟

انظر إلى من عليهم تتكبَّر، وفيهم تحتكم، هل هم إلّا أناسيّ مثلك، يأكلون كما تأكل، ويمشون كما تمشي، لهم جسوم مثل جسمك، وأرواح مثل روحك، و- ربَّما- فضلوك بعقولهم، وبزُّوك بآدابهم، وعَلَوْك بأخلاقهم، وطاولوك بشهامتهم، وطالوك بكبر نفوسهم، وصفاء سريرتهم، وطهارة سيرتهم، وفاقوك بحسن خَبَرهم وطيب خُبْرهم! ولمثل ذلك فليعمل العاملون، وبمثله فليفتخر المفتخرون:

وما المال إلّا عـــارة مســـــتردَّة فهلَّا بفضلي كاثروني، ومحتدي![1]

ما يضرُّهم أن لو كانوا ذوي ثياب رثَّة ومال قليل، إذا زانت نفوسهم حُلَى

(1) البيت للطغرائي صاحب «لاميّة العجم».

الفضائل، وكمَّلتها نبالة الشمائل:

عليَّ ثيـاب لو تُـــباع جـــــميعها بِفَلْس لكان الفلس منهنَّ أكثرا[1]

وفيهنَّ نفـسٌ لو تُقاس بقـــــــدرها نفوس الورى كانت أجلَّ وأكبرا

وما ضرَّ نصل السيف إخـــلاق غمده إذا كان عَضباً حيث وجَّهْته برى

المرءُ- يا هذا- «مخبوء تحت طيّ لسانه، لا تحت طيلسانه» وهو قيْدُ أعماله، لا قيد أمواله؛ فمن كرُمت نفسه كرم عمله، ومن سَفُلَت نفسه سَفُلَ عمله، وكلّ امرئٍ بما كسب رهين.

ما ذا يفيدك أن لو حييت حياة الملوك، وأنت غير مالك نفسك؟ بل ماذا تنتفع أمَّتك من وجودك، إذا كنت لا تحسن إليها؟ أتظنّ أن أموالك تزينك، وأن ملبسك يعليك، وحسن هيئتك تُسميك؟ إنك إذن لمن المخطئين. أتزعم أن الفقير ذا الخلق العظيم، أقلّ منك مقاماً وأدنى منزلة؟ إنك- إذن- لمن الظالمين.

قيمة المرء ما يحسن، فإيّاك أن ترجو المنزلة السامية في الدنيا، والمقام المحمود في الآخرة، إذا لم تخدم قومك، وتسعَ في إنجاح وطنك، فإنك أن سعيت وخدمت، تَنْبُهُ بعد الخمول، وتُحمَد بعد الذمّ. والله يجزي المحسنين، وقد قال أحد الفزاريّين:

إلّا يكـــن عظـــمي طويلاً فإنني له بالخصال الصالحات وَصولُ

(1) الأبيات للإمام الشافعي (رضى الله عنه).

ولا خيرَ في حسن الجســـوم ونبْلها إذا لم تــزِنْ حسنَ الجسوم عقولُ

إذا كنت في القوم الطــوال علوْتهمْ بعـــــارفةٍ حتى يُقــال طويلُ

ولم أرَ كـــــالمعروف، أمّا مــذاقه فحـــــلوٌ وأمّا وجـهه فجميلُ

أيّها الإنسان!

إنك خُلقتَ لأمرٍ، لو علمت خفيَّه..... خُلقتَ لما هو أسمى ممّا يخطر ببالك، وأعلى ممّا تتصوَّر. فانزع عنك ثوب الرياء، واخلع رداء الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، فتهبطَ مصراً غير مصرك، فإن فيها ما سألت من النعيم الظاهر واللذّة الحاضرة، غير أنك تندم بعد ذلك، حيث لا ينفعك الندم، ولا تغنيك ليتَ ولعلّ.

خُلقت لعمارة الأرض وحسن السير في مناكبها. خُلقت لتكون خليفة الله فيها. أهكذا تكون عمارتها؟ وهل بهذه الأعمال الشائنة تتولّى خلافتها؟ ما بهذا أُمِرنا، ولا لمثل ذلك خلقنا!

خليفة الأمّة، يحسن سياستها، ويدّبر أعمالها، ويدير دولاب حياتها الاجتماعية، والعمرانية. وعامر الأرض يسعى لرفاهيّة سكّانها وخادميها، ويهّيء لهم الأسباب التي تدعوهم لعمارتها، ويقدّم لهم كلّ ما يحتاجون إليه لصلاح تلك الأرض.... فهل أنت- أيّها الإنسان، يا من خُلقت لعمارة الأرض، يا من وُجدت لتكون خليفة الله فيها- تعمل بمقتضى سنّة الله في الأكوان، لتصحّ خلافتك عليها، وتكون عامراً لها؟؟؟

أهلها جوَّع، وقاطنوها جهلاء، فهم يأكلون بجهلهم لحوم إخوانهم، ويخربون بسوء عملهم ما أمر الله بعمارته، وأنت أنت قادر على تعليمهم وإطعامهم، وتدبير أمورهم، والنظر في إصلاح شؤونهم.

فاتَّقِ الله في الوديعة التي استودعك إيّاها، فقد ادَّعيتَ أنها ملك لك، فتصرَّفت فيها على ما يرضي هواك، لا على ما يريد المودع.

إنما جعلك غنيّاً لتنظر في حالة الفقراء والمساكين، فتدرأ عنهم عوادي الزمان، وتدفع طوارئ الحدَثان، فاستأثرت بالأمانة، وصرت من أهل الخيانة، ولسوف تندم، ولات ساعة مندم.

ثم إنك لم تكتفِ بما فعلت، بل طفقت تُنكر عليهم حقَّهم، وتعبث بمرافقهم، وتحتقرهم كأنهم الأنعام أو أضلّ سبيلاً، فكأنك لم تنظر إلى قول الله الكريم: «وفي أموالهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم».

أيُّها الإنسان!

استيقظ من غفلتك، فإن الزمان قد استدار، وربّ هذا الفلك المدار. فأدّ الحقّ الواجب، فإنه عليك ضربة لازب، وانهض من سباتك، وأصلحْ ما فات من غلطاتك، وتدارك هفواتك. وإلّا فارتقب جزاء سيِّئاتك، وويلات غفلاتك. يوم يطالبك شركاؤك بما أكلت من حقِّهم اللازم، فينأى عنك أولياؤك، فلا تستطيع تأدية المغارم، ثم يأتيك يوم هو أشدّ الأيّام هولاً، وأثقلها وطأةً؛ هو يوم يُنتَصَر فيه للمظلوم من الظالم، وللضعيف من الغاشم، ذاك يوم تدور فيه رحى الشقاء على أهل الجور، ويهيم فيه

البخلاء في كلّ نجد وغور، فلا يجدون مكاناً يعصمهم من البلاء، ولكلّ قوم دور.

أيُّها الإنسان!

تنبَّه، إني لك من الناصحين، واحذر أن تخالف عن أمري، فتكون من الخاسرين. «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»، فالإنسان أخو الإنسان. و«إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» و«ليس لأحد فضل على أحد إلّا بدينٍ أو عملٍ صالح»، و«إنّ أقربكم مني مجالس يوم القيام أحاسنكم أخلاقاً، الموطَّؤون أكنافاً، الذي يألفون ويُؤلَفون»، و«إن أخسر الناس صفقةً مَنْ أخلق يديه في آماله، ولم تساعده الأيّام على أمنيته، فخرج من الدنيا بغير زاد، وقدم على الله بغير حجّة»، و«قد برئ من الشُّح مَنْ أدّى الزكاة، وقَرى الضيف، وأعطى في النائبة»، و«لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه» و«الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني»، و«في كلّ ذات كبدٍ حرَّى أجر»، و«العفو لا يزيدُ العبد إلّا عزّاً، والتواضع لا يزيده إلّا رفعة»، و«ما نقص مال من صدقة»، و«اليوم الرهان، وغداً السباق والغاية الجنّة، والهالك من دخل النار»، و«يُحضر الجبّارون والمتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذرّ يطؤُهم الناس».

فانزع عنك- أيُّها الإنسان- ثوب الغرور، واخلع معاطف الزهو والخيلاء، وانظر إلى أخيك في الإنسانية، وأَعِنْه بما تستطيع، وخفّف ويلاته، وقلّل من نكباته، فماذا تفيدك كبرياؤك؟ وما تغني عنك خيلاؤك»؟:

فاتَّـقِ الله يا قـــــــــويُّ وخفّضْ إن ملكـــت الورى من الغُلَواء

إنما الناس- يا قـــــــويُّ- سواء كلّ خـــــلقٍ من طينها والماء

لا تدعْ شـــــــوكة التكـبُّر تنمو فجـــــــميع الأنام من حوّاء

إن تفـــاخرْ بالأصل فالطين والما أو ببطـــشٍ فهاك أسد الشراءِ

خـــفّف الوطء فالبرايا عيال الله فارحم يرحمك مَنْ في السماءِ

وانتزع عنك مِطْرف الزهو، واخلع قبَّعات الإعجـــاب والكبرياءِ

.....

قَحْطُ رجال، أم قَحْطُ وجدان؟

... يشكو الناس، اليوم، من قحط الرجال، وعدم وجود الأكفاء العالمين المدرّبين. وأنا أشكو من قحط الوجدان، وندرة الحكّام الذين ينظرون إلى الجريمة لا إلى المجرم، وما يتبعه من الذيول والغيوث.

وقحط الوجدان ليس قاصراً على المتربِّعين فوق دست الأمر والنهي والحلّ والعقد، بل هو عامّ شامل الأمّة إلّا مَنْ رحم ربُّك، وقليل ما هم، ومع ذلك فكلُّنا ندَّعي المحافظة على الحقّ، وأننا أحرار معتصمون بحبل الدستور المتين.

إذا لم نربِّ الوجدان تربية صحيحة، وإذا لم نرمِ بالأغراض إلى مكان قَصيّ، فلسنا بأحرار، ولو سبَّحنا باسم الحرّيّة، آناء الليل وأطراف النهار. لأن الحرّيّة تقضي على كلّ إنسان حاكمٍ أو محكوم أن يتبع الحقّ، وينصر المظلوم، ويبتعد عن كلّ عمل شائن.

الوجدان الصحيح يجب أن يكون في كلّ امرئ حرّ، غير أن وجوده في الحاكم آكدُ منه في سائر الناس؛ لأن بيده إحقاق الحقّ وإبطال الباطل. فإن راعى وجدانه، وانصاع لحكم العدل، فقد أحيا ميّت الرجاء في الأمّة، وأنشرَ مندثر الأمل.

الرجال عندنا كثيرون، لا كما يتوهَّم الناس، فإن بيننا، من أهل الثروة والعلم والقوانين وأرباب الإدارة، رجالاً يُفتخر بهم لو راعوا وجدانهم وخدموا أمَّتهم خدمة صادقة. غير أن الأهواء تصدف بهم عن سلوك جادّة المنفعة العامّة، وتقذف بهم في طريق الغاية الشخصية، والنظر إلى منفعة الذات. فأغنياؤنا عبَّاد أموال، وعلماؤنا خَدَمة أقوال، وحكّامنا روّاد آمال، وقليل من هؤلاء وأولئك من يجود لمنفعة الأمّة، ويعمل بما يعلم، ويحكم بما يوجبه الحقّ، ويمليه عليه الوجدان.

الأغنياء لو راعوا وجدانهم، وخدموا الأمّة بأموالهم المكنوزة في الصناديق، وأفاضوا عليها من وابل الإحسان، وشيَّدوا لها المدارس، لنهضت من رقدتها، وأقيلت من عثرتها. لكنهم عن ذلك غافلون، وبترفهم منهمكون. ولو أَهبْتَ بهم ليتنبَّهوا، ولو حرَّضتهم لينفحوا المشروعات الخيرية بجزء من أموالهم، لَلَوَّوْا رؤوسهم وهم معرضون!!

فهل نقول ليس عندنا رجال أغنياء، أم نقول إنه ليس لكثير من أغنيائنا وجدان حرّ يدفعهم إلى الأخذ بيد الأمّة وإقالتها من هذه العثرة؟ العلماء يقولون ما لا يفعلون، وبأهوائهم مشتغلون، وعن تعليم الأمّة وتهذيبها وإرشادها لاهون، مع أنهم عالمون، وعلى الحقيقة مطَّلعون. فهل نقول ليس عندنا علماء، أم نقول إنهم باعوا الدين بالدنيا، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

الحكّام، وما أدراك ما هم؟ قوم فوّضت الأمّة إليهم أمورها، وألقت عليهم أثقالها، ورمت إليهم بمقاليد الحكم على أعراضها وأموالها ودمائها. ثم بصُرت بكثير منهم حادوا عن سبيل الرشاد، واتَّبعوا غير طريق السداد،

تلقاء وصاية أو رجاء، وميلاً لمنفعة أورياء. ويظنّ الكثير أن سبب ميلهم عن الحقّ هو الجهل بالقوانين، وأن من سُلِّموا زمام الحكم غير أكفاء. وهو حكم عليهم غير صحيح، وإنما عادات الدور البائد لم تزل مؤثِّرة في نفوس أكثرهم، ومسيطرة على طبائع الجلّ منهم. فهل نقول ليس عندنا حكام أكفاء، أم نقول إن الوجدان ضعيف؟

فيا أيُّها الحكّام، راعوا وجدانكم، وأصيخوا إلى صوت ضميركم، ولا تدعوا من لا أخلاق لهم يقولون: لا فرق بين الماضي والحاضر، وأننا لم ننل من فوائد الحرّيّة والدستور، إلّا انطلاق الألسنة وحرّيّة الجرائد، التي اتَّخذ كثير منها الحرّيّة ذريعة لهتك الأعراض وشتم الناس والتطاوُل على أهل الفضل.

إن كثيراً من الدعاوي التي تنظرون فيها ليس عليها أثارة من حقّ، فلا تسرعوا بالحكم فيها إلّا بعد قتلها علماً، وإيَّاكم أن تبتُّوا الأمر قبل أن تتثبّتوا فيه. فوالله، إن التزوير والكذب والنفاق قد تأصّلت جذورها في نفوس الأمّة، فلا تكونوا عوناً للظالم على المظلوم، ولا تسهِّلوا للمزوِّرين السبيل، ولا تفتحوا لأهل النفاق والشقاق الأبواب، فيَلِجوها، فإن دخلوها فقد اختلط الحابل بالنابل، وضاعت الحقوق، وتطاولت الفسّاق وأهل الشرور على الأبرياء، وأهل الفضل والحقّ.

التربية أساس النجاح

في التربية، وفضائلها

التربية كلمة صغيرة اللفظ، كبيرة المعنى، تنطوي تحتها الكمالات أجمعها؛ فهي ملاك الخير كلّه، وجماع الفضيلة بأسرها، وعليها مدار الكون، وبها ننال الفلاح، وفيها قبعت ذرَّات النجاح.

وهي، في اللّغة، مصدر (ربّاه، يربّيه) بمعنى: نمأه. وفي اصطلاح علماء الأخلاق والتربية هي تنمية الأخلاق الفاضلة في النفس، وتعهُّدها بالإرشاد، لتكون مَلَكة راسخة فيها، فتثمر الفضيلة والخير.

فعلى التربية الحقّ سعادة الأمم وفلاحها، وشقاؤها وانخذالها. فمتى كانت التربية صحيحة في أمّة من الأمم، رفعتها من وهاد التأخُّر إلى ذروة الفلاح، والعكس بالعكس. وعلى مقدار التربية تكون تجلية الأقوام في مضمار هذه الحياة، فما من أمّة وجدت التربية الحقّ في قلوب أبنائها متَّسعاً إلّا بلغوا ما يأملون من رفاه العيش وسعادة الحياة. وبقدر التربية يكون في الأمم الرجال المفكِّرون الذين يبذلون وسعهم، وينفدون مجهودهم، لترقية أمَّتهم وأوطانهم.

خذ أيّة أمّة من الأمم الراقية، اليوم وقبل اليوم، تجد أنها قد تقدَّمت، وبلغت

ما بلغت من العظمة والمدنيّة، بواسطة أناس تربّوا تربية صحيحة، فعرفوا انحطاط أمّتهم وتأخُّرها، فضحّوا كلّ مرتخَص وغالٍ، حتى أرواحهم ودماءَهم، في سبيل تخليص أمّتهم من مخالب والاستبداد، والأخذ بأيديها ونشلها من مهاوي الجهل والفساد، حتى أنافوا بها على يفاع الحرّيّة وذروة المدنيّة. والأمثال على ذلك كثيرة تكاد لا تحصى، والتاريخ طافح بها. وهاكَ مثالاً من ذلك- الأمّة العربية:

- الأمّة العربية، وما أدراك ما هي؟ تلك الأمّة الرفيعة الشأن، البعيدة الصيت، التي بلغت من المدنيّة والعمران شأواً بعيداً لاتزال آثاره ناطقة شاهدة على ما كان لهم من العظمة في الملك والسلطان وامتداد السطوة. تلك الأمّة التي مدّت جناح ملكها على الحجاز واليمن والشام والعراق، وفارس وإفريقيا والأندلس وقسم من أوروبا، ووصلت حوافر خيولها إلى قسنطينية وباريس. تلك الأمّة التي نشرت العلوم والمعارف والصناعات، وبثَّت في أرجاء المعمور أنوار الهداية لسلوك مناهج العلم والفضيلة. تلك الأمّة التي لم تزل أوروبا، اليوم، تعترف لها بالتقدُّم، وتقول إنها تلميذة لها، وعنها تلقَّت العلوم والصناعات التي كانت لها نوراً أوصلها إلى ما هي عليه، الآن، من التقدُّم والبراعة في كلّ شيء.

تلك الأمّة التي هذا شأنها، ماذا أصابها حتى أصبحت الآن ضعيفة، متأخِّرة في كلّ شيء؟

- من نظر إليها، بعيْن التروّي والبصيرة، نظرَ المنتقد الخبير، يعلم أن ضعف التربية وفساد الأخلاق هما اللذان أوصلاها إلى هذه الحال من التأخُّر- فسدت أخلاق الناس بفساد أخلاق الملوك: «إن الملوك إذا دخلوا

قرية أفسدوها، وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة».

ملوكها بطرت معيشتهم، فاستبدّوا برعيَّتهم، فقام عليهم ثائر من أهلهم أو من غيرهم، بداعي الإصلاح، فاشتعلت الحروب الداخلية، فلَها الناس بها، وتركوا التعليم والعلم والتهذيب والتربية- زد على ذلك أن الأجنبي اغتنم فرصة هذه المشاكل الداخلية، فجاءهم على حين غرّة، فأصبحوا بين شقّين من عصا: عدوّ في الداخل، وعدوّ من الخارج، وتلك هي الطامَّة الكبرى، والبلية العظمى. ومازالوا على أنفسهم والعدوّ الخارجي عليهم، ينقص أرضهم من أطرافها، إلى أن زالت مدنيَّتهم، وبقيت أثراً بعد عين. واضمحلّ ملكهم، وذهب من أيديهم إلى أيدي غيرهم، فكادت تُمحى الدول الإسلامية، لولا أن قبض على ناصية الخلافة خلفاءُ بني عثمان.

هذا مثال من أمثلة الأمم التي كان ضعف التربية وفساد الأخلاق من أسباب انحطاطها بعد الارتفاع، وتأخُّرها بعد التقدُّم.

وهاك مثالاً آخر، وهو أقرب ما أضربه للقارئ:

مضى على الأمّة العثمانية حينٌ من الدهر (33 سنة)، لم تكن فيه شيئاً مذكوراً، بعد أن كانت تتخوَّفها دول العالم، وتحسب لها ألف حساب. فقد كانت في مقدِّمة الدول استعماراً واستعداداً. فلمّا نخر سوس فساد التربية والأخلاق عظم مجتمعها، بسبب ما طرأ عليها من استبداد الهيئة الحاكمة، وإماتة الشعور فيها، والضغط على عقولها- لَمّا حصل ذلك في الأمّة، أشرفت على الهلاك، وأشفت على شفا جُرفٍ هارٍ من الاضمحلال، فطمعت فيها الدول الحاضرة التي كانت تخافها، وكادت تقتسمها، فعلاً، لولا أن أسعفها أولئك الأحرار الذين صاحوا بالاستبداد وأهله صيحةً

أماتَتْهم، فأجفلت عند ذلك الدول الطامعة باغتيال المملكة واقتسامها شرَّ اقتسام، ووقفت على الحياد.

أولئك الأحرار الذين كانوا سبب إنالتنا الحرّيّة، وواسطة كسر قيود الاستبداد والظلم عن أيدينا وأرجلنا، وفكّ عقالات المراقبة عن أقلامنا، وتحطيم أغلال الجاسوسية عن ألسنتنا - أولئك الأقوام الأحرار كانوا سبب هذا الانقلاب العظيم الذي أبدل شكل الحكومة من مطلقة مستبدَّة، إلى مقيَّدة عادلة. وهل يظنّ أحد أن هذا الفكر كان يجول في غير أدمغة المتربِّين من الأمّة، إلى أن أظهره، إلى عالم البروز، هؤلاء الأحرار؟ كلّا. ثم كلّا. هذا الفكر لم يكن لينشأ إلّا من قوم قتلوا التربية علماً، ثم سعوا في أمرٍ كان موضع إعجاب العالم أجمع، حتى أدهش الساسة، وحيَّر عقول الناس كافّة، على اختلاف طبقاتهم وتبايُن مشاربهم.

فالتربية- إذاً- هي منار التقدُّم، ورائد الفلاح لكلّ أمّة تريد أن تربأ بنفسها أن تكون خاملة الذكر، أو تكون مع الهالكين.

تربية الأخلاق والشعور

التربية المنزلية

خير التربية ما كان يُرضَع مع اللبن، فمن تربّى التربية المطلوبة وهو في سنّ الطفولية، نشأ والأخلاق الفاضلة خلُق فيه، وصحّة الرأي وصدق العزيمة تنشئة له. لذلك، يجب أن يُعتَنى بالولد الاعتناء اللازم منذ يرى نور الحياة الدنيا. فيُعَوَّد كرم الأخلاق والشجاعة وحبَّ الخير، وغير ذلك

من الفضائل والمحامد. ومتى كان كذلك يرجى من الناشئ أن يكون عضواً صحيحاً في جسم الأمّة، يبذل روحه ودمه في خدمة أوطانه ودولته، لأنه يكون، بمقتضى تلك التربية، مجبراً مقهوراً على أداء الواجب نحو الأمّة (ولو كان في زمن حرّيّة القول والعمل)؛ إذ ليس منشأ ذلك الإجبار أو القهر هو السلطة الاستبدادية، لأن هذه السلطة تكره كلّ من يقوم بأعباء الخدمة الوطنيّة، وأثقال منفعة الأمّة. وليس منشأه من قوم يأمرونه بذلك، فيفعل حياءً أو رياءً. لكن، ما هو منشأ ذلك؟

– منشأ الإجبار على القيام بالواجب، هو تلك العاطفة التي ربَّاها المربّي، وعمل على إحيائها العلم الصحيح؛ ألا وهي الضمير، هذا الضمير أو تلك النفس الطاهرة هي التي تجبره على خدمة وطنه وأمّته ودولته، ولا تحصل تلك العاطفة بغير التربية الصحيحة. فالتربية جماع الخير كلّه، وأساس الفضائل بأسرها. فربُّوا أبناءَكم وبناتكم، وأودعوا في نفوسهم التعاليم القويمة، وابذروا في قلوبهم تلك البذور الطيِّبة، وتعهَّدوا أفكارهم بمياه الفضائل، ولا تدعوا لسلطان الأوهام والخرافات على عقولهم سبيلاً. وبذلك يحيون حياة طيبة، ويكونون أبناء المستقبل، يخدمونه بكلّ صدق وأمانة وإخلاص.

التعليم أمر عظيم، جليل القدر، عظيم الفائدة، ولكن التربية أشرف وأنبل، وأعظم وأجلّ. فإن العاقل الخبير، والناقد البصير، يرى من نفسه ارتياحاً لقوم حَسُنت تربيتهم، ونَبُلت أخلاقهم، وكَرُمت نفوسهم، ولو كانوا غير متعلّمين. ولا يُرى هذا الارتياح وذلك الأنس بفئة من المتعلّمين، ليس عندهم من التربية الصحيحة ما يرغِّب الناس في مخالطتهم والأنس بهم. وهذا مُشاهَد بالعيان، لا يحتاج في صدقه إلى برهان. وقد ورد في

الحديث الشريف: «خير الناس من يألف ويؤلَف».

وليس المراد ممّا قدّمناه إنكار مزية العلم والتعليم، حاشا لله أن أكون من الجاهلين، فالعلم من أقوى دعائم المدنيّة، وأقوى أسباب الرقيّ في معارج الحضارة والعمران. وإنّما القصد أن التربية والأخلاق ومعرفة الواجب، خير من العلم المجرّد عن التهذيب والآداب والأخلاق الفاضلة، وهذا أمر لا ينكره عاقل، وما أحلاهما إذا اجتمعا في المرء!.

كم رأينا من شبّان درسوا ما درسوا، واغترفوا من بحر العلوم ما اغترفوا، ولكنهم في فساد الأخلاق غارقون، وفي حمأة الشرور منغمسون، لا ينفعون الأمّة والوطن، وليس مرادهم إلّا «ريّى، وسعدى، وهنداً»، وغيرهن من دواعي السرور وأسباب الحبور.... غير أنهم لو علموا العاقبة لقالوا: إنها شرور، وأيّة شرور!.

ناشدتك الله: هل أمثال هؤلاء المتعلِّمين سوى أعضاء أشلاء في جسم المجتمع؟ وهل تفضِّلهم على أولئك الأخيار الأطهار، أصحاب القلوب النقيّة البيضاء، والأخلاق الكريمة السمحة، الذين لم يسعفهم الحظّ بالجلوس وراء مناضد المدارس؟؟.

.....

ليس القصد من التربية أن تكون الألفة بين النوع الإنساني فقط، بل الأمر أعلى من ذلك وأرفع، وأشرف وأنبل، فإن الغاية التي نقصد إليها، والضالّة التي ننشدها، هي أن نوجد، بواسطة التهذيب والتربية، في نفوس النشء، شعوراً لطيفاً، وعاطفة شفّافة، يجبرانه على القيام بالواجب نحو

الأمّة والوطن والناس أجمعين. وذلك لا يكون إلّا بتعويد الأحداث مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال، منذ نشأتهم، وبذلك نكون قد خدمنا الوطن والإنسانية أجلَّ خدمة تُذكَر فتُشكَر. فتعويد الأحداث على العمل بالواجب منذ الصغر يربّي في نفوسهم تلك العاطفة التي نريدها، وذلك الشعور الذي نتطلَّبه. فالتربية في الصغر كالنقش في الحجر.

الولد لابدَّ أن يشبّ على خُلُق حميد أو ذميم، لأنه، بحكم القسر والطبيعة، مفطور على اكتساب ما يسمعه أو يراه من خير أو شر، نفع أو ضرّ، فهو بالقياس إلى ما يسمعه كالصدى «الفونوغراف»، وبالنسبة إلى ما يراه كناقل الهيئة «الفوتوغراف»، فكما أن الأول يحفظ في أسطوانته ما يُلقى إليه من الألفاظ، والثاني ينطبع في زجاجته ما يكون أمامه من الأشباح والهيئات، ثم يبدي كلّ منهما ما أكنَّه وأخفاه، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، فكذلك الولد، ينطبع في مرآة عقله ما يراه من الأفعال، وينقش في صفائح ذهنه ما يسمعه من الأقوال، ثم يبدي ذلك للناس، ويعاملهم حسب ما رآه وسمعه.

فمَثَلُ قلب الولد مثل الشمعة، قابلة لكلّ نقش وصورة، فاحذر- أيَّها الرجل- أن تنقش في فؤاد ولدك وفلذة كبدك ما يكون وبالاً عليه وعلى أمّته، في مستقبل حياته. قال الإمام الغزالي:

«إن الولد أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية عن كلّ نقش وصورة، فإن عُوِّدَ الخير وعُلِّمَه نشأ عليه، وسَعِدَ في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكلّ معلِّم ومؤدِّب. وإن عُوِّدَ الشر وأُهمِل شَقِيَ وهَلَك، وكان الوزر في رقبة وليِّه والقيِّم عليه».

فسعادة الوطن - معشر أبنائه- أن ندأب في تهذيب الأحداث، وتربية

الصبيان، قبل أن يأتيهم يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، وهو يوم الجهاد الأكبر في معترك الحياة المستقبَلة. فالتربية لا تؤثّر إلّا أن كانت منذ الصغر، كما قدَّمنا. وأمّا تربية الشبّان، بعد أن تتأصَّل فيهم شأفات الجهل وفساد الأخلاق، فهي عسيرة، وأعسر منها تأديب الكهول والشيوخ. وهؤلاء قد ينفعهم التعهُّد بالوعظ والإرشاد، من حين إلى آخر:

قد ينفع الأدبُ الأحداثَ في صغرٍ ... وليس ينفعهم من بعده أدبُ

إنَّ الغصون إذا قـــوَّمتها اعتدلت ... ولا يُقوَّم لو قـــوَّمتَه الخشبُ

تلك هي التربية الأولى في هذا الدور؛ دور الطفولة أو دور التهذيب المنزلي أو الأسري. وهو دور يجب التنبُّه له أشدّ التنبُّه، إذ عليه مدار رحى الآمال.

التربية المنزلية خير واسطة لبثّ المبادئ القويمة في نفوس النابتة، وأفضل سبب يرقى بهم في سلَّم النجاح والخير. وفي الجملة، فتأثير الأسرة «العائلة» في طبائع الناشئين وعقولهم أمر لا ينكَر، بل إن طبائع الآباء- ربَّما- تنتقل إلى بنيهم بطريق الإرث، حتى ذكروا أن بعض فلاسفة الأميركان «أوليفيه ويندل هلمس» سُئِل عن مبدأ تربية الطفل فقال: «تبتدئ تربية الطفل قبل أن يولَد بمئة سنة»؛ يريد بذلك أن التربية تراث يرثه الولد عن آبائه، كما ورد في الحديث الشريف: «الرضاع يغيِّر الطباع»- فإن لم تحسُن أخلاق الوالدين والوالدات أثر ذلك في أولادهم؛ لهذا يجب على المربين والمربِّيات أن يتكلَّفوا الأخلاق الحسنة - وإن لم يكونوا من أهلها- حتى تنطبع في مخيِّلة الولد صور السجايا الحسنة، وهيئات الأخلاق الصحيحة.

ومن آكَدِ الواجبات في هذا الدور أن يترك الوالدان كلّ خصام وجدال،

وينبذا كلّ خلق سيِّئ يؤدّي إلى النفور. وذلك بأن يعرف كلّ من الزوجين ما لأحدهما على الآخر من الحقوق فيؤدّيها. وإلّا كان خصامهما وتنافرهما ضربة قاضية على البنين والبنات، لأنهم يحفظون من الآباء والأمَّهات روايات سيِّئة يمثّلونها متى بلغوا مبلغ الحياة الزوجية.

وليُعلَم أن تربية الولد بين ظهراني أسرته «عائلته» هو خير له وأولى من دفعه إلى المربِّيات، يتصرَّفن فيه بسوء أخلاقهنّ وشرّ عاداتهنّ. وإنّا لنرجو من السيِّدات أن يتحمَّلن تلك المشقّة، مشقّة التربية والتهذيب، بأنفسهن، فهي- في الحقيقة- راحة وحُسْن مستقبل لأولادهنّ.

التربية المدرسية

هناك دور ثانٍ، وتربية ثانية، هو دور التلمذة والتربية المدرسية. وهو دور يجب الاهتمام به كسابقة، فإنه نتيجة ما تعلَّمه من أبويه، وما اختبره من أخلاقهما وأخلاق أسرته. فإن كان من حُسْن حظِّه أنه وُجِد في مدرسة مستوفاة الشروط، من حُسْن التربية والتهذيب، فتلك سعادة فوق سعادة. وإن وجد في مدرسة فسدت أخلاق طلّابها والقائمين بأعبائها، فهناك الطامّة الكبرى، والبليّة العظمى. إذ هناك، يتصرّف الطلبة بأخلاق بعضهم، والمعلمون بأخلاق تلاميذهم.

ولـمّا كانت المدرسة منزلاً ثانياً للناشئ، وجب أن تكون كمنزله الأصليّ، معهداً للأخلاق الكريمة والسجايا الفاضلة. وإلّا كانت ضربة قاضية على التلميذ، بل شرّاً عليه من الأفعى والوحش الضاري؛ لهذا وجب على الأب أو

الوليّ أن يختار لولده أو للقيِّم عليه، من المدارس، أسماها تربية وأرقاها تهذيباً. وذلك هو أوَّل ما يجب أن يهتمّ به حين يريد إدخاله في المدارس. وأمّا أمر التعليم فهو شيء ثانويّ بالإضافة إلى التربية.

المدارس كثيرة، فيجب علينا أن نسعى لإصلاحها، ونبذل الجهد لإيجاد روح الفضيلة والتهذيب العالي في كلّ حجر من أحجارها، وكلّ خشبة من أخشابها. وبذلك نضمن مستقبل أبنائنا.

كيف نصلح المدارس؟

– نصلحها بإصلاح القائمين بأعبائها، وذلك بأن نحمل رؤساءها على أن يختاروا لها الأكفاء من المعلِّمين والمربِّين، وأن لا ينتخبوا لها إلّا من هو ثقة، معروف بآدابه وأخلاقه، لأن التلاميذ أمانة بين يديه؛ وذلك بأن لا يكون المربِّي أحمق، أنانيّاً، وسخ الذيل، بل يكون طاهر السيرة والسريرة، وقوراً، محبّاً للنفع، وأن يكون من أصحاب الدين والوجدان. ولست أقصد أن يكون المربِّي شيخاً أو كاهناً، وإنّما أعني بذلك أن يكون متَّبعاً للحقّ، محبّاً للخير والسلام، ذا وجدان صحيح، وأخلاق فاضلة، وعواطف شريفة، يسير بتلاميذه نحو ما يعود عليهم بالسلامة والنجاح. فإن فعلنا غير ذلك، فعلى مستقبل النابتة السلام.

وسائل التربية في دَوْرِي الأسرة والمدرسة

تختلف وسائل التربية وأسباب التهذيب باختلاف مشارب المربّين، فمنهم

من يرى أنها لا تكون إلّا بالقسوة والشدّة والضرب، وغير ذلك من الوسائل التي كانت محظورة في أيّام الاستبداد، فأحرِ بها أن تكون كذلك في أيّام الحرّيّة والعدل.

التهذيب، على تلك الصورة، هو من الأعمال الوحشية، وهو بقيّة من بقايا الهمجية، لأنها تُفقِد الناشئ ذلك الخلق الكريم، وهي الشجاعة التي هي ملاك كلّ فضيلة. ولست أعني بالشجاعة أن يكون وحشيّاً يستلّ مديته أو مسدَّسه عند أقلّ طارئ. كلّا، وإنما أريد بالشجاعة تلك الروح التي تحفِّز المرء للدفاع عن وطنه بقلمه أو ماله، بل بسلاحه وروحه، إن طرأ على البلاد طارئ أجنبيّ يريد بها شرّاً (لا قَدَّرَ الله ذلك).

ومنهم من يرى أن التربية بشتم النشء وسبِّهم وإهانتهم وتخويفهم، وغير ذلك ممّا يربّي في نفوسهم الذلّ والهوان والصَّغار. فالتربية على هذه الصفة تُفقِد الناشئ كلّ شعور وإحساس، وتنزع عنه كلّ صفة من صفات الخير والكمال، وتجعله لكلّ مؤثِّر، وآلة صماء بِيَد كلّ مدير، فلا يتحرَّك لأمر، ولا يتأثَّر من هوان، فالموت والحياة لديه سيّان:

من يهُنْ يســـــهل الهـــــوان عليه ما لجـــــــــــرحٍ بميّت إيلامُ

التربية الصحيحة التي جاء بها الشرع، وأقرَّ عليها العقل، ودلَّ عليها الاختبار، وأَمَرَ بها عملاء التربية والتهذيب، تكون بتعويد النشء الفضائل، وإرضاعهم المحامد، وتغذيتهم بما ينير الأذهان، ويوسِّع نطاق العقول، مع لبن التغذية ودروس العلم، بلا مخوّف ولا إهانة ولا ضرب، بل بالترغيب والتنشيط، وتمثيل الفضائل، بصورها الكاملة، ومستقبلها الحسن، وتمثيل الرذائل والأخلاق السافلة والكسل، بصورها القبيحة، ومستقبلها السيِّئ.

وهناك أمر مهمّ في التربية، وهو أن لا يتكلَّم أحد بحضرة الأطفال والناشئين بما ينافي التربية القويمة من ألفاظ الفحش والبذاء، وكلمات التخويف والتهويل، كالبعبع والجنّ والعفاريت، وغير ذلك ممّا يُحدِث في نفوس النابتة أثراً سيِّئاً، لا يمحوه كرور الأعوام، ولا مرور الزمان. لأن ما ينطبع في الناشئ لا يفنى إلّا بفناء جسمه، ولا أدري إن كان يصاحب روحه، بعد موته، أيضاً.

أمّا ما يفعله بعض من لا أخلاق لهم، من بثّ جراثيم الفساد في أولادهم، وذلك بأن يتكلَّموا أمامهم بكلمات السفاهة، وعبارات الوقاحة، فهو مما لا يجدر بالعاقل السكوت عنه، إن رأى مثل ذلك، لأنه من باب المنكَر الذي تجب إزالته بأية وسيلة من الوسائل.

التربية العمليّة

متى تمّ للناشئ هذان الدوران: دور التربية المنزلية، ودور التربية المدرسة، ينتهي إلى دور ثالث هو أشدّ الأدوار وأجدرها بالاعتناء؛ ألا وهو دور الجهاد في معترك الحياة، دور الجدّ والعمل، دور السعي بلا ملل، وهو نتيجة الدورين السابقين. فإن كانا حسنين فهو حَسَن، والضدّ بالضدّ. غير أنه يلزَم التنبّه لأمرٍ عظيم، هو أنه لا يكفي أن تكون التربيتان الأُولَيان ساميتَيْن، فقط، بل يجب أن يكون دور الجهاد منزَّهاً مقدَّساً، وإلّا ضاع التعب الماضي سُدًى، لأن هذا الدور الثالث دور اجتناء ثمرة الجهاد والجدّ والتربيتَيْن اللتين تقدَّمتاه، فإن لم نحسن اقتطاف هذه الثمرات تذبل شجرة الحياة.

كيف تكون التربية في هذا الدور؛ دور الجهاد والعمل؟ وكيف تُجنَى نتائجها؟

- تكون التربية في هذا الدور، كسابقيه، بالمحافظة على الآداب الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والسعي وراء تنمية القوى العقلية، والأدبيّة، بالاختبار والمشاهدة والمطالعة، وغير ذلك من وسائل ترقية النفس وإذكاء نار الهمّة.

وهناك أمر مهمّ جدّاً، هو أن يبتعد الشاب عن أقوامٍ فسدت أخلاقهم، وخبثت ضمائرهم، ليس لهم هَمّ إلّا الفساد وتدنيس شرفهم وأعراضهم بقاذورات المواخير والحانات والميسر «القمار».

وإني لأعلم طائفة ممَّن تربّوا تربية حسنة، في دور الأسرة «العائلة» والمدرسة، ثم خرجوا منهما إلى دور العمل والجهاد، فأحاط بهم قوم فسدوا أخلاقاً، وانحطّوا آداباً، فأفسدوا عليهم أخلاقهم وشرفهم، وغمسوهم في حمأة الشرور والمنكرات، فخسروا أموالهم وعقولهم وأجسامهم وثقة أمّتهم بهم. فلا حول ولا قوَّة إلّا بالله.

يجب أن نلتفت إلى هذا الدور الْتفِاتَ متيقِّظ حاذق حذِر. والتربية في هذا الدور هي للحكّام أكثر منها للآباء. فيجب على القوّة الحاكمة أن تبحث عن الشرور وأصحابها، وتنقِّب عن مواضع قتل العقل والشرف، وإهلاك الأجسام، وإتلاف الأموال، فتقفلها. وإن لم تفعل ذلك، ضاع مستقبل الشبّان، ورجعوا بخفَّيْ حُنَين، بعد عناء التربيتَيْن.

أيَّتها القوّة الحاكمة، لا عذر لك في إهمال الشبّان، وعدم النظر إلى تحسين

أحوالهم، بمنعهم من كلّ ما يضرّ بدينهم ودنياهم وأجسامهم وعقولهم، فاحرصي على تخليصهم ممّا هم فيه من الفساد والفجور، ولا تتوهَّمي أن القانون يبيح أمثال هذه الشرور والموبقات. كلّا، إن القانون أباح الحرّيّة الشخصية بشرط أن لا يتعدّى ضررها إلى الغير. وأفعال الشبّان متعَدٍّ ضررها إلى غيرهم، ولا يظنَّنّ ظانٌّ أن الحكومة لا تقدر أن تمنع الشخص من عمل يضرّ بنفسه لا غير، بل هي مفوَّضة في منعه من كلّ ما يضرّ به وبغيره. ألّا ترى أنها لو رأت أحداً يريد أن يقتل نفسه، فهل تدعه يفعل ما يشاء، أو تمنعه من ذلك؟- لاشكّ أنها تمنعه، فكذلك لو رأته يعاطي القمار والشرور فهي تمنعه منها، فإن لم يكن المنع حبّاً بمن يعاطي هذه الأمور، فهو للحرص على أن لا يراه غيره، فيعمل مثل عمله، إذ لو تركوه وشأنه فعمل غيره بعمله، يصير الضرر عامّاً لا خاصّاً.

.....

وصفوة القول أن التربية الصحيحة للأخلاق والشعور، هي أساس الفضائل ونبراس التقدُّم، وسلَّم الترقّي، وروح النجاح، وأن ترقّي المجتمع والأمم، إنّما يكون بحسب الهمم ومقدار العزائم، ولا تكون العزائم القويّة، والهمم العالية إلّا بتصحيح المبادئ، وتقويم الأخلاق؛ وذلك يكون بزرع بذور الملَكات الصحيحة في عقول النابتة، وتعويدهم الفضائل منذ نشأتهم، حتى يكونوا رجال المستقبل، مع ملاحظتهم في دور الجهاد والعمل، إلى أن يؤمَن جانبهم.

ويعجبني في هذا المقام قول الفيلسوف الطويراني:

«كلُّ جيل من البشر هو عنوان ما قبله، ومقدِّمة ما بعده، وشبّان كلّ عصر

كبار آتيه وصغار ما فيه. فكيفما كانت مقدِّمات الأعمال في أمّة، كانت نتيجة الآمال فيها».

الأنانيّة وحبّ الذات

خلق الله الإنسان، وأعطاه من الإدراك ما يستعين به على مكافحة أهوال هذه الحياة، ومصادمة المصاعب التي تحول بينه وبين جرّ ما ينفعه، ودرء ما يضرّه، وهداه النجدَيْن، وأوضح له الطريقَيْن، وسنّ له من النظامات ما لو اتَّبعه لكان سعيداً في الحياتَيْن. أرسل له الرسل، فأبان له على ألسنتها السبل، وعرض عليه الأمانة التي أبت أن تحملها السموات والأرض، إباءً طبيعياً لعدم الاستعداد لذلك، لأنه لم يُودعْ فيها ما يجعلها أهلاً لتلك التكاليف التي يترتَّب عليها الثواب والعقاب، وحملها الإنسان، وتلقّاها بما خُصّ به من جوهر العقل، وسداد الرأي، وسلامة الفطرة: «إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا»، فخان الله في أمانته، وأضاع ما أخذه عليه من العهود والمواثيق، «إنه كان ظلوماً جهولاً» طغى، وبغى، وترك النهج السويّ، طمعاً في إرضاء الهوى، والنفس الأمَّارة بالسوء، فسُدَّت أبواب السعادة الحقيقية في وجهه، وسوف يندم على ما فعل، ولات ساعة مندم.

ما السبب الذي دعاه إلى ذلك، يا ترى؟ وما العلّة التي قعدت به عن الطيران في سماء الفضائل، إلى السفيف[1] على حضيض الرذائل، وحادَتْ

(1) سفَّ الطائر: مرَّ على وجه الأرض

به عن سلوك الصراط المستقيم، إلى المرتع الوخيم؟

- لو دققنا، الفكر وأمعنّا النظر، لرأينا أن السبب لذلك، والعلّة الكبرى لاقتحامه هذه المهالك، هو حبّ الذات على غير وجهه، والاستئثار بالمنفعة دون غيره، والأنانية التي تصحبه من مهده إلى قبره؛ وعن ذلك تنشأ سائر الرذائل الممقوتة، والأخلاق المذمومة.

حبّ الذات يُطلَق على معنيَيْن: أحدهما مذموم، والآخر ممدوح مقبول معقول. أمّا الأوَّل، فهو أن يميل إلى الاستبداد بالأمر، والامتناع بالمنفعة دون غيره، ويبذل ما في وسعه وطاقته لسدّ أبواب الخير عن سواه، وتضحية المئات من منافع الخلق في سبيل خير جزئي يعود له، أو نفع قليل يرجع إليه. فحبُّ الذات، بهذا المعنى، رذيلة وحشية، لا تصدر إلّا عمَّن فقد الشعور الإنساني والمرحمة القلبية، ولبِسَ من الهمجية ثوباً طويل الأذيال، واسع الأردان، وكيف لا يكون كذلك؛ وهو القائل:

إنَّما دُنياي نفـــســـــي، فإذا ذهبتْ نفســـــي فلا عاش أحدْ

ليت أن الشــمس بعدي غرُبَتْ ثم لم تطـــــلعْ على أهــل البلدْ

ولا أبالغ إذا قلت إن أكثر الناس قد نهج هذا الخلق السيِّئ، وخاض في تيّار ذلك الأمر الذي كاد يقضي علينا أو قضى، فنزع ما في قلوبنا من الحبّ والشعور، فاستبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير. ترى أحدنا إن لاح بارق- ولو خُلّباً- أو بصيص من نور نفع وهميّ، سعى لذلك سعياً حثيثاً، وإن أضرّ بمجموع الأمّة التي هو عائش في بيئتها، ومتمتِّع في بحبوحة خيرها:

يقول: إذا ما كـــنت أمرح في المنى فما الناس عندي غير حصبة صاحب

أرشده فكره السافل، ورأيه العاطل، إلى أن الاستئثار بالمنفعة خير له وأبقى، فجنى على نفسه وعلى غيره. لأن ذلك داءٌ معدٍ، ما سرى في أمّة من الأمم إلّا كان أقوى سبب لسقوطها، وجعلها في أخريات الناس، في هذا المعترك الحيوي.

اختبر حالة الناس، اليوم، ونقِّب عن أفعالهم وأعمالهم، ترَ أنهم يغتنمون الفرص، ويطلون الوسائل بمغناطيس الحيل، وكهرباء المداهنة، لجذب المنافع إليهم، ودفعها أن تُنيخ بباب غيرهم. بل هناك داهية أعظم ونكباء أشدّ، وهي أن كثيراً منّا، لغاية نفسية خبيثة كمنت في فؤاده كمون النار في صلد الزناد، يسعى لإفساد ذات البَيْن، وإيقاع ذات البَيْن، والتفريق بين الأخوَيْن، وإلقاء الناس في التهلكة، وجرّ المصائب والويلات عليهم. وماله بذلك من فائدة، ولا يناله من عائدة، بل لأنه حنق عليه مرَّةً في عمره، أو أصابه منه أذى، ولو لايعبأ به. ولا أُبرِّئ كثيراً منّا من هذه الوصمة. فإن البعض إذا حصل بينه وبين أحد نفور ما تراه يزوّر القول، ويختلق الأكاذيب، لإثبات ذنب على من بينه وبينه حزازة أو نفور، تشفّياً منه وانتقاماً، ولكن الحقّ لا يخفى، ولو سُتر بأسجاف الباطل الكثيفة، وستائر الوهميّات الغليظة، فلا يلبث أن يزول هذا الغطاء، وينهتك ذاك الرين، فتبدو الحقيقة بأجلى مظاهرها، وأبهى حليّها وحللها.

نعم، هذه حالة اليأس اليوم: كلّ يجرّ النار إلى قرصه، ويطلب الماء إلى غرسه. ولو علموا ما في الأثرة بذلك من الضرر المبين، لأقلعوا عنه تائبين. ومع ذلك فهم يُظهرون خلاف ما يُبطنون، ويقولون مالا يفعلون. أمّا الذات بالمعنى الثاني، فهو أن يسعى المرء لما يعود عليه بالنفع، بشرط أن لا يُلحق بغيره ضرراً، فهو- بهذا المعنى- ممدوح مطلوب، بل فضيلة عليها قوام أمر المدنيّة وعمارة هذا الكون، إذ من المحال أن يعمل أحد عملاً

لاترجع له منه فائدة دنيوية، أو أخروية. ولو أن هذه الفائدة أمر وهمي، يخرج من الأفواه، فيحمل على أجنحة الهواء، فيطير في الفضاء، كالمدح والثناء، أتظنّ أن أصحاب هذه المعامل العظيمة، والاختراعات الجسيمة، لولا حبّهم لذاتهم، هل أتوا بغرائب هذه المدنيّة التي نشاهدها بأبصارنا، ونحكم باستحسانها، إجمالاً، ببصيرتنا؟، وهل كنّا قد رأينا البواخر تمخر عباب البحار، تُقِلّ ما عليها من الأثقال والسفارة، إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلّا يشق الأنفس؟، وهل كنّا قد أبصرنا القطار، يقطع السهوب والقفار، قد اتَّخذ سبيله في البرّ سهلاً وسرباً، فأرانا أمراً عجباً، فإن أردته وقد أُطلِق له العنان، فلن تستطيع له طلباً، تارةً يصوِّب وطوراً يصعِّد، وأخرى يبدي زفيراً وشهيقاً، وآونةً يبكي لهفةً مشوقاً، وآنا تستولي عليه الدَّعة والخمول، فيخلد إلى السكون وقطع العويل، يسير إلى حيث يراد به، كما هو يريد؟ وهذا هو شأن المشتاق العميد:

وما هو إلّا كالمشـــوق حدا به غـــرامٌ أثارتهُ جـــنوبُ الحبائبِ

وهذي بخارات الجوى ودخانهُ ونيرانهُ في الصدر تحت الترائبِ

أُراني قد جُذبت بعامل التصوُّر، وسرحت في عالم الخيال، فأستجديكم- أيّها القرّاء- عذراً.

نعم، ولولا حبُّ الذات لما قام لدينٍ قائمة، بل ولا عُبِد اللهُ في أرضه، ولا سمعت للكرام اسماً، ولا رأيت للشجاعة والمروءة رسماً. فلو أن حاتماً وعنترة والسموءل، لم يكونوا ممَّن يحبّون أنفسهم، بل ممَّن هم كَلِفوا بمحبِّها، لما ألبسوا أرواحهم ثوباً من المدح لا يبلى ولو بَلِي الدهر، وتاجاً تتمنّى الثريا أن تكون في سمائه. لولا حبّ الذات وبقاء الذكر المخلَّد المسطَّر على صفحات الكون، لَما دعتِ الأوّلَ نفسُه إلى أن يجود بها في بعض

الأحايين، ولَما خاض الثاني المعامع، ورغب في عناق الأسمر الخَطّار، ومصاحبة الأبيض البتّار، غير مبالٍ بالكوارث، ولا مهتمّ بالحوادث، يستضيء بسيفه إن أظلم الليل، ويستصبح بسنان رمحه إن اختلطت حنادس الخطوب بظلمات الليل. ولولا حبّ الذات، وطيب المدح، وعظَمة الفخر، لَما جاد ثالثهم بولده وفلذة كبده، وآثر حبَّ الشهرة والتقريظ على روح ولده، وما كان سلَّم تلك الدروع، لولا ما قدَّمناه من حبّه لذاته، ليقال إنه أمين، صرَفَ، دون حفظِ ما أُئتُمن، روحَ نجله.

وهناك قوم ليسوا في العير ولا النفير، فسَّروا حبّ الذات على غير الوجه الذي فسَّرَه به أصحاب الرأيَيْن: الأوَّل، والثاني، فأدَّى بهم حبّهم لذاتهم أن تعالوا على أبناء جنسهم، واحتقروا مَنْ سواهم، فظنّوا أن الله لم يخلق غيرهم، وأن ما عداهم خيالات وأوهام، أو حيوانات عُجْم لا يستحقّون الإكرام، فهم كالأنعام، أو عبيد لهم والسلام. وحسبوا أنهم، بذلك، محبّون لذاتهم مُكرِمون لها. ولو علموا أنهم، بفعلهم هذا، أغضبوا الخالق والمخلوق، بل لو درَوْا أن هذا ليس من حبّ الذات في شيء، بل هو من بغضها وكراهية الخير لها، لأقلعوا عن ذلك، ورجعوا عن العبور في هذه المسالك، التي توصل إلى المهالك.

من كان هذا دأبه مع أبناء جنسه، وتلك فعلته بمن هو منهم، فقد فتح لهم طريقاً ليسلكوا في هَجْوه والقدح فيه، ويُتبِعوه الاحتقار حيث مال، والنفور منه في الحلّ والترحال، وهو غافل عن أفعالهم، يظنّ، لفرط جهله وأنانيّته وعجبه بنفسه، أن كلامهم كلّه مدح، وفعلهم جلّه تعظيم وتبجيل.

يظنّ هذا الجاهل العَبام، ومن هو على شاكلته من الطّغام، أن هذا من باب تكريم النفس، فمن اتَّصَف به فهو ذو نفس أبيّة، و- ربَّما- ينشد: «ومن

لا يكرّمْ نفسه لا يكرَّم» ويفسِّره بمعنى الترفُّع عن الناس والتكبُّر عليهم واحتقارهم: إمّا ليخافوا بأسه وشدّته، أو ليخضعوا لِجاهِه وثروته، لا يوقّر كبيراً لسنِّه، ولا عالماً لفضله، ولا يرحم صغيراً لضعف مُنَّته.

حُكِي أن مطرف بن عبدالله بن الشخير نظر إلى المهلَّب بن أبي صفرة، وعليه حلّة يسحبها ويمشي الخيلاء، فقال: يا أبا عبدالله، ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلَّب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك.. أوَّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة. فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعراً، فقال:

عجبتُ من معجَبٍ بصـــــورته وكان بالأمـــــس نطفة مذرَهْ

وفي غدٍ بعد حسن صـــــورته يصير في اللحـــد جيفة قذرَهْ

وهـو على تيـهـــهِ ونخـــوتهِ ما بين ثـــوبيه يحمل العذرَهْ

وكان المهلَّب أفضل من أن يخدع نفسه بهذا الجواب الغير الصواب، ولكنها زلّة من زلّات الاسترسال، وخطيئة من خطايا الإدلال.

وشواهد ذلك كثيرة بيننا، اليوم، فأدِرْ طرفك في هذا العالم، واختصَّ بهذا الحكم بني آدم، ترَ صدق النتيجات، من هذه المقدِّمات. يفعلون كلّ ذلك اعتماداً على أنه من باب تكريم النفس والإباء. ألم يدْرِ هؤلاء المعجَبون بأنفسهم أن معنى تكريم النفس، هو أن يحملها على معالي الأمور، ويجهدها للصبر تحت أعباء المجد، ويسدي الجميل إلى الناس، ويغضي عن زلّاتهم، مع القدرة على الانتقام، وأن يبذل جهده وطاقته دون إيصال الخير إليهم، ودفع المضرّة عنهم.

هذا معنى حبّ الذات وتكريم النفس. فإن فعل ذلك فقد استحقّ الإكرام منهم، ورفْع المنزلة بينهم، وأن تكون له الكلمة العليا، والأمر النافذ: يقومون إن قام، ويعقدون إن قعد:

ومن يجعلِ المعروفَ من دون عرضه يَفِرْهُ، ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتَمِ

ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضله على قومِه يُستغنَ عنه ويُذمم

ومن يُوفِ لا يُذَمْمْ، ومن يُهدَ قلبه إلى مطمئنّ البرّ لا يتجمجمِ

وإن فعل غير ذلك فقد أساء إلى نفسه وبني جنسه. ويكون قد أضرّ بنفسه من حيث لا يشعر، وجنى عليها من حيث لا يدري. فيكون «كالتي نقضت غَزْلها من بعد قوّة أنكاثاً[1]»، هذا إن كان له غَزْل، وقدّم بين يدَيْ سيِّئاته حسَنات.

مُحِبّ الذات، بهذا المعنى، أيضاً، سافل، ساقط المروءة والدين، ناقص العقل، مفتون بالرذيلة. بل هو عين الإعجاب الذي أنكره الله والعقلاء، وشُدِّد الوعيد على من تردَّى بردائه، كما جاء في الحديث القدسيّ: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما قصمته»، وكما جاء في حديث آخر: «ثلاثٌ مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوى مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه». والآيات في ذلك كثيرة، نكتفي منها بقوله تعالى: «ولا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً»، وقوله تعالى: «وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ».

(1) الأنكاث: الألبسة البالية التي تُنقَض لتُغزَل ثانية، ومفردها نِكْث.

وما الإباء الذي يفسِّرونه إلّا عجب وكِبْر، وجرٌّ لذيول الفخر الباطل، والمجد الوهميّ، فيمثّلون نقيصة الإعجاب، تحت ستائر الامتناع عن الضيم، واسم الإباء المحمود. وأمّا الإباء والامتناع عن الضيم، إلّا أن تلبس مطارف الفضيلة، وتنزع ثوب الرذيلة، وتتبع الحقّ أينما كان، وتُذلَّ النفس في طلب الكمال، وتُهينها تحت عبء المجد، لتنال، بذلك، عزّ الأبد وفخار الأمد. ولا أقصد بتذليل النفس وإهانتها أن يكون الإنسان خاضعاً تحت نير الأغيار؛ يُصفَع فلا يعتبر، ويُرشَق بسهام الكلام فلا يدَّكر. كلّا، وإنَّما هو الخضوع للحقيقة، وتحمُّل المشقّات في سبيل المكرمات، غير مبالٍ بما يعترضه من العقبات، ولا عابئٍ بما يحول بينه وبين القصد من المخوفات.

هذا هو حبّ الذات، وهذه هي فضيلته، ورذيلته، فأُعيذ قومي بالله أن يكونوا مع من فسَّروه على غير وجهه، ولم يدركوا حقيقة كنهه.

أحبُّوا أنفسكم، واسعَوْا لمنفعة ذواتكم، وترفَّعوا عن النقائص وقرين السوء، لكن لا تَدعوا لإبليسِ بغضِ الغير والضررِ بهم سبيلاً يجوزه، ولا لوساوس النفس الأمّارة بالسوء طريقاً تعبره، فتأمركم باحتقار سواكم، والترفُّع عن أبناء جنسكم- اللهمّ- إلّا أن يكونوا ممَّن عُرفوا بنقص الدين والعقل، وفساد الأعراق، والميل لمنكرات الأخلاق. ومع ذلك فلا ينبغي احتقارهم والازدراء بهم لأنفسهم. بل إنَّ الترفع عن أفعالهم، والابتعاد عن شائن أعمالهم، كافيان في احتقار ما هم فيه من فاسد أحوالهم.

وإيّاكم أن تدَعوا للعجب والكبرياء على عقولكم سلطاناً، فقد قال بعض الحكماء: «عجب المرء بنفسه أحد حُسّاد عقله» وأعيذكم بالله أن تكونوا من الحاسدين.

جدُّوا واجتهدوا وتقدَّموا، فقد كفانا ذلك الخمول الطويل، والسبات الذي

كاد يُدعى بالدائم، أو دُعي، وحسبنا ذلك الانحطاط الذي جعلنا آخر الأمم، بعد أن كنَّا القابضين على نواصي العلم، والجالسين على منصَّات الفضل، إلينا يُرجَع في المشكلات، وعلينا يُعتمد في المهمّات، وبنا تُناط الصناعات، وفينا تحلّ المكرمات. تركنا ذلك الهدي الواضح، والعقل الراجح، ومِلنا عن تلك المناهج إلى هذا الجهل الفاضح. وسلكنا مفاوز مظلمة الأرجاء، وطُرقاً يضلُّ فيها الخِرّيت[1]، ونبذنا العلوم والفنون والصناعات، والاخلاق ومستحسن العادات، تقليداً للأهواء، وهوًى للتقليد. وما بهذا أُمرنا، ولا لذلك خلقنا. وقد حلَّ فينا من جراء ذلك:

أعـــــباءُ همٍّ من ثقال الأسى ... لو حُـــمّلتها الشـــمُّ لم تَسطِعِ

ولو بدت للشـــمس في أُفقها ... أرزاؤُنا الدهـــــماءُ لم تستطَعِ

ولو رأَتها الطـــير في وكـــرها ... آمنةً عـــيَّت ولم تســـــجعِ

فلنطرح عنّا تلك الاخلاق والعادات، ولنتمسَّك بما يوصلنا إلى غاية الغايات، ورفيع الدرجات. وإلّا فلا رقيّ ولا نجاح، ولا صلاح ولا إصلاح. فسلام عَلَى من يسعى لإحياء الوطن بإبادة جراثيم الأخلاق الضارّة، ونشر العادات السليمة، والعلم والتربية الصحيحة.

(1) الخِرّيت: الدليل الحاذق.

رجال الإصلاح

اختلف الباحثون في أحوال النوع الإنساني، من حيث جبلَّته، على ثلاثة أقسام: قسم يعتقد أنَّ الإنسان مفطور عَلَى الشرّ وإرادة السوء، وأنه لا يكتسب الخير ولا يعتاده إلّا بعد عناد طويل يُصرف في تهذيبه وتعويده الفضائل، وقسم يعتقد أَنه مفطور على الخير والفضيلة، وإنّما يصرفه عنهما دواعي السوء وأسباب الشرّ، وقسم يقول إنه خُلق غيرَ ميَّال إلى الخير ولا إلى الشر، بل هو مستعدّ لهما معاً، فإن وجد له أسباب تدفعه إلى الفضيلة، وتصدف بِه عن الرذيلة، فهو ذاك، والعكس بالعكس.

وعلى كلّ حال، فهم- وإن اختلفوا في المبدأ- متَّفقون على أن الإنسان تؤثِّر فيه التربية والوعظ والإرشاد لما فيه سعادته في الدارين. فإن أُهمل وشأْنه يصدأُ فكره، وتعلو بصيرته غشاوة، وتغلب عليه الأخلاق السافلة، وتأسره الرذائل. وإن هُذِّب ورُبّيَ التربية الحقّ، وتعهَّده الواعظون والمصلحون بالإرشاد إلى السبيل القويمة، والطريق السويّ، فذلك ينزع مافيه من فساد، ويربأُ به أن يسير في غير منهج السداد.

وإني مع القوم القائلين بأنَّ المرء مفطور على الفضيلة. وذلك أنَّ النفس التي أودعها الله- سبحانَهُ- في الإنسان هي من جوهر صافٍ نقيّ، لأنها هبطت إلى هذا الهيكل الإنساني من مكان مقدَّس رفيع، ليس فيه سوء

ولا رذيلة. وإنّما يكتسبها من البيئة التي يوجد فيها، كما أنه يزداد لطافةً وطهارةً من بيئته، إن كان أهلها من الأصفياء والأطهار. فالنفس كالبلَّور النقيّ الشفّاف، يبقى محفوظاً من الدنس والأوساخ إن مُنع عنهُ الغبار والطوارئ التي تزيل بهجته وصفاءَه، ويزداد صفاءً ورونقاً إن زيد على ذلك تعهُّده بالصَّقل والتنظيف. ثم إنه يعدم تلك البهجة وذلك الصفاء، إن تُرِك عرضةً لكلّ طارئ يطرأ عليه، و-ربَّما- تأتيه صدمة شديدة تحطِّمهُ تحطيماً.

إذا ثبت هذا، وأن جبلَّة الإنسان- على اختلاف الآراء فيها- تفسد بالإهمال وفساد البيئة، وتصلح وتترقّى بالإرشاد والوعظ والنصائح، فلابدَّ أن يكون في كلّ أُمّة قوم يقفون حياتهم، ويبذلون جهدهم لإصلاح الفاسدين، وزيادة خير الخيِّرين. وأولئك هم الرجال المصلحون الذين ما وجدوا في أمّة إلّا كانوا سبب رفعها من وهاد التدلّي إلى أوج الترقّي، ووسيلة تقدُّمها وعلوّها بعد التأخُّر والانحطاط.

وبقَدْر عدد المصلحين في الأمّة يكون ترقّيها وبلوغها مبلغ الحياة العالية والمدنيّة الراقية، وبنسبة قلَّتهم يكون تأخُّرها وتقهقرها؛ لذلك يجب السعي الحثيث وراءَ تخريج رجال عظماء، يعرفون الداء وموضعه، فيعملون على ملاشاته وتطهير جسم الأمّة والمجتمع منه.

المصلحون أقسام: قسم يبذل الجهد لتنقية الأمّة ممّا ألمَّ بها من الأمراض، لا لغاية يسعى وراءَها، ولا لمصلحة يتطلّبها. وأولئك هم الذين يُرجى منهم النفع الصحيح، وعليهم تُعلَّق الآمال بترقية الشعب، والنهوض به من كبوته إلى صهوة النجاح. وهذا القسم قليل في كلّ أمّة. وهو- على قلَّته- يفعل مالا تفعله الكثرة التي مزجت غايتها بالإصلاح. وبهذه القلّة

نالت الأمم حرِّيَّتها، ووصلت إلى ما ترجوه وتطلبه من المدنيّة والرقيّ، وقد تفعل القلَّة ما لا تفعل الكثرة.

وقسم يريد الخير، لكنه جاهل طريق الإصلاح، وقد يكون ضرره أكثر من نفعه، وهؤلاء كثيرون في الأمّة، وأغرب من ذلك أنَّ اكثرهم يدَّعي المعرفة والمقدرة على العمل، ودماغه أفرغُ من فؤاد أمّ موسى، غير أنه يغشُّ العامّة بهذه الدعوة، ويتسلَّط على عقولهم، فينقادون إليه صاغرين، فيسير بهم إلى هوَّة الجهل، ويُركِبهم متون الغباوة والخسران.

وقسم قادر على الإصلاح، وعارف وجوه الخلل والأسباب المُحِطّة بالأمّة إلى الدرك الأسفل، غير أنه لا يريد خيرها، ولا كشف رَيْن الجهالة عن قلبها، ولا إزالة برقع الأوهام عن بصائرها وأبصارها. وذلك لأن في خيرها إضاعة مصلحة له، على زعمه، كضعف سلطته، وذهاب أُبَّهته وعظَمته، لأن العلم والاستبداد لا يجتمعان، فهو يسعى لإبقاء الأمّة في ليلٍ من الجهالة بهيم، كيلا تتنبَّه إذا عرفت الواجب وما لها من الحقوق، فيتساوى معها. والظالم يبغض المساواة، وذلك كان شأن رؤسائنا في الدور الماضي البائد، ونرجو أن لايكون رجال اليوم كرجال الأمس.

وهناك قسم ليس في العير ولا في النفير؛ فهو يعرف من أين تؤكل الكتف، وكيف يكون الإصلاح، فيحشر نفسه في زمرة المصلحين، ويُظهر للناس أنه من أكابرهم وخيارهم، غير أنه لا يقصد من وصف نفسه بذلك إلّا مأرباً يسعى وراءه، وغاية يقصد إليها، فهو يلبس رداء الإصلاح، ونفسه عدوَّة له. وقد يقصد الإصلاح والنفع الذاتيّ معاً، لكن الإصلاح متى مُزج بنفع الذات يكون ضئيلاً قليل الفائد، وكثيراً ما يتغلَّب طلب النفع للنفس على الإصلاح، و- ربَّما- كانت النتيجة شرّاً بحتاً.

مَن المُطالَب بالإصلاح؟

المطالَبون بالإصلاح خمسة:

رجال الدين: وهؤُلاء عليهم أن يقوموا بوعظ الشعب والنصح له، وإفهامه واجباته نحو الخالق والمخلوق والحكومة، وتهذيبه تهذيباً شريفاً عالياً، وتعليمه الدين كما أُنزل: خالياً من كلّ بدعة وخرافة. فمتى قاموا بهذا الواجب تجلَّى سلطان الدين على قلوب العامّة، وصَرَفهم عن الشرّ إلى الخير، وجعَلَهم ينقادون لما فيه خيرهم وسعادتهم.

ورجال المال: وهؤُلاء عليهم أن يمدّوا يد المساعدة لافتتاح المدارس وإنشاء المعامل والمصانع، وتشييد صروح عالية للصناعات الوطنيّة. ومتى تَمَّ لنا ذلك بقيت أموال البلاد محفوظة فيها، فنستغني، إذ ذاك، عن الأجانب الذين يبتزُّون أموالنا بل دماءَنا، ونحن عن ذلك ساهون لاهون.

نحن في حاجة شديدة إلى المال لأن به نوال كلّ مرغوب، وتحصيلَ ما فقدنا من المدنيّة والتقدُّم. وهو الذي يعيننا على افتتاح المعامل، وإنشاء المدرَّعات، وإحياء مدنيّة أسلافنا الكرام، التي بنوها بجدّهم واجتهادهم وسعيهم وراء تحصيل العلوم والمعارف وتعلُّم الصناعات.

وأصحاب الجرائد والأقلام: وهؤلاء عليهم أن يتجرَّدوا عن كلّ غاية سافلة، ويتنحّوا عن ذكر ما يوقع الأمّة في الاختلاف والتفريق، أو يجلب عليها هواجس وأفكاراً سيِّئة- وهي في حاجة إلى ما يطمئن بالها ويسكِّن جأشها- وعليهم أن لا يذكروا إلّا ما كان خبراً يغلب عليه الصدق، أو مقالاً يفيد الأمّة، ويبعث فيها روح الجدّ والسعي إلى ما ينهض بها من كبوتها، ويُقيلها من عثرتها. فرجال الأقلام هم قادة الشعب، فإن أَحسنوا

القيادة أَوصلوه إلى الغاية الحسنة والعاقبة الحميدة، وإن أَساؤُوها كانت عاقبتهُ الاضمحلال والدمار، وغايته السوء وخراب الديار، وقد كنّا نظنّ أن صحافتنا تنهج منهجاً حسناً بعد الانقلاب، فإذا كثير من أربابها لم يقصدوا، بإنشائها، إلّا غاية غير مشكورة، فلم يودعوا فيها إلّا ما هو ضارٌ بالأمّة والوطن، ولم ينشروا إلَّا ما يتقاضون عليه الدنانير، كالرسائل المأجورة التي ملؤُها السفاهة والوقاحة والطعن في أعراض الناس والتشفّي منهم. غير أن طائفة من الصادقين في خدمة البلاد، الذين لا ذنب لهم إلّا أنهم أحرار يبذلون جهدهم لتوطيد الدستور والانتصار للمظلوم وردع الظالم عن ظلمه، قد جرَّتهم قافية اصحاب الإمضاءات المكذوبة والرسائل المأجورة، فاختلط الحابل بالنابل، والبريء بالمجرم. فاتّقوا الله، يا أرباب الأقلام! وتفكَّروا، يا أصحاب الجرائد! ولا تدعوا الأصفر الرنّان يسيطر عليكم فتنشروا الأكاذيب والمطاعن الشخصية. اتّقوا الله في هذه الأمّة، وخذوا بأيديها إلى ما يفيدها، وانشروا لها ما ينهض بها، فإنكم رُعاة لها، «وكلّ راع مسؤول عن رعيَّته».

ورجال الحكومة: وهؤلاء هم روح البلاد وملح الأمّة. فمتى فسدوا فسدت الأمّة، وتأخَّرت البلاد. ومن وظائفهم حفظ الأمن ورقابة المفسدين والأشقياء، وإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، والانتصاف للمظلوم من الظالم، وغير ذلك مايجعل البلاد وأهلها سعداء. وكلّ هذه الصفات التي يجب على الحاكم أن يتَّصف بها كانت مفقودة في الدور الماضي، لذلك أصبحت البلاد خلاءً من الرجال العظام، وصارت الصناعات أثراً بعد عين، واستفحل الظلم، واستأسدت الرشوة. وإن ما نراه اليوم، بعد أن نشر الدستور لواءَه، من المظالم والفوضى، هو أثر من آثار ذلك الدور. وإن حكم الاستمرار المعروف عند علماء الطبيعة لم يزل جارياً. غير أن

التيّار لابدَّ أن ينتهي عند حدّ، بشرط أن نقاومه ونبطش بأهله، ونبَيِّن نقائصهم، حتى يعتدلوا أو يعتزلوا، وأمّا إن تركناهم وشأنهم فسيزداد التيّار، ويطرد حكم الاستمرار، ويرجع الأمر إلى ما كان عليه.

يشكو كثير من الناس، بلّ كلّهم، من ازدياد الفوضى والظلم والرشوة ومخالفة الحكّام لأحكام القوانين. وإنهم محقّون في ذلك، لأن فئات من رجال الحكومة، في الدور الماضي، لم يزالوا رجال الحكومة في الدور الحالي. وهؤلاء قد اعتادوا الظلم والرشوة والاستبداد، حتى تأصَّل ذلك في نفوسهم، وصار خلقاً من أخلاقهم، فمهما عوَّدوا نفوسهم الإقلاع عنه، فلابدَّ أنهم يميلون، بحكم القسر، إلى ما تعوّدوه، وكان يجب عزلهم واستبدال غيرهم بهم.

نعم، أنا لا أنكر أن بين هؤلاء رجالاً أحراراً صادقين في خدمة الوطن، وهذا لا ينكره إلَّا من استولى التعصُّب على قلبه حتى ران عليه. وهذا قد شاهدته في مدينتنا (بيروت)، يوم كان الاستبداد ضارباً أطنابه، والجواسيس كالجراد المنتشر، تنقِّب عن الأحرار ورجال النهضة. فإن هذه الطائفة القليلة لم تكن تجاري رجال الدور الماضي على أعمالهم المنكرة، بل كانت تبذل كلَّ الجهد لتخليص الأحرار من مخالب الجواسيس والمستبدِّين. وإني أتكلَّم عن مشاهدة واختبار، وقد جرى لي كثير من المحَن الاستبدادية التي سبّبها الجواسيس اللئام، فقاموا بناصري، وعملوا على تمزيق التقارير بعد أن كان الخطر قاب قوسين أو أدنى. ولابدَّ أن يكون، في كلّ بلدة من بلاد الدولة، رجال قلائل من الحكّام، هم على شاكلة هؤلاء الكرام.

يا رجال الحكومة، أصلحوا أنفسكم، وعوّدوها العمل بالقانون، قبل أن يأتيكم يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلّا من كان مخلصاً في أعماله،

جارياً في سنن العدل، سالكاً سبيل الحقّ، ونصرة العدل بين الرعيّة. ولا تظنّوا أن هذه الفوضى تدوم، فما هي إلّا سحابة صيف عن قليل تقشَّع. وما هي إلّا لازمة من لوازم الانقلابات، ثم تضمحل وتذهب «فأمَّا الزبد فيذهب جفاء، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

والقسم الخامس من رجال الإصلاح، هم رجال دار النَّدوة: وهم الذين انتخبتهم الأمّة لينوبوا عنها بما يلزمها من الإصلاحات، وما تحتاج إليه مما يرقى بها في مدارج المدنيّة. وهؤلاء عليهم سَنُّ الأنظمة والقوانين التي تعود على الأمّة والبلاد بالخير. غير أننا نرى بعضهم أضاع ثقة الأمّة، وعمل بما يخالف مقصدها، وأضاع وقته الثمين بالسكوت، أو بالكلام الذي لا طائل تحته ولا نتيجة.

مجلس الأمّة قوام حياة البلاد، وسعادة العباد، فهو يحتاج إلى اتّفاق أعضائه واتِّحادهم ليعملوا عملاً يفيد الوطن. وإنَّ مجلسنا النيابي هو أشدُّ احتياجاً إلى الاتِّحاد والوئام من كلّ المجالس النيابية في العالم؛ لأنه يضمُّ في ردهته أعضاء مختلفِي الأديان والمذاهب والأجناس، فإن كان أهل كلّ جنس أو دين ينظرون إلى غيرهم نظر الاحتقار، ويناوئونهم في كلّ ما يطلبون (ولو كان وراءَه نفع عظيم) فهناك ضياع الآمال.

الأمّة، اليوم، كلّها جسم واحد، فيجب أن يسعى النوّاب في كلّ ما يعود على مجموعها بالخير، من غير نظر إلى جنس أو مذهب، وأن يساعد أهلُ كلّ جنسٍ الجنس الآخر فيما يطلب، إن كان حقّاً؛ فإن بذلك إنهاض الأمّة ورقيّها.

فعلى كلّ رجل من رجال الإصلاح أن يتجرَّد عن كلّ غاية، ويسعى السعي الحثيث لمصلحة الوطن، ويعملَ كلّ وسيلة لبتر كلّ عضو فاسد في المجتمع. والله لا يضيِّع أجر المحسنين.

الإرادة

اجتمع أعضاء مجلس شورى ولاية بيروت «المجلس العمومي»، في دار كامل بك الأسعد. وكان بينهم السيّد محمد رشيد رضا صاحب مجلّة «المنار» الشهيرة. فاقترح عليه بعضهم أن يقوم فيهم خطيباً، فخطب خطبة عمرانية مهمّة، ذكر فيها ما يجب على هذا المجلس اتِّباعه، وكان فيما ذكَّرهم به وحثَّهم عليه كلامٌ موجزٌ مفيدٌ عن الإرادة. قال:

أيُّها الاعضاء الكرام: إن هذا الغرض الذي تطالبون به عظيم، ولكن قوّة الإرادة في الإنسان تصغّر كلَّ عظيم، وتسهّل كلَّ عسير. فإذا وجَّهتم عزائمكم إلى ذلك بالإخلاص، فإنكم تصلون إلى الغاية، بإذن الله:

وكلُّ من جَـــدَّ في أمرٍ يحـــاوله واســـتعمل الصـبر إلّافاز بالظفرِ

يرى بعض الفلاسفة أنَّ الإنسان لا يجزم إرادته بأمر ممكن إلّا وينفذ. وكان الأستاذ الإمام على هذا الرأي، وقد قال لي غير مرّة إنه لم يجزم إرادته بطلب شيء جزماً تاماً، لا تردُّد فيه، إلّا وحصل. وقد كان حكماء الصوفيّة على هذا الرأي، وعَبَّرَ عنه بعضهم بقوله: «إن لله عباداً إذا أرادوا أراد»؛ أي إذا صحَّ توجُّه إرادتهم إلى شيء تعلَّقت إرادة الله تعالى به، وما تعلّقت به إرادة الله نفذ حتماً. فعلى الإنسان أن يعرف قيمة نعمة الإرادة،

فيوجِّهها إلى خدمة وطنه، جازماً بأنه أهلٌ لأن يرقِّيه، وهو بهذا يكون أهلاً له، مهما كانت معارفه. فإنَّ تفاضل الناس بالإرادة فوق تفاضلهم بالمعرفة. فما كلُّ عالم ينفع، وكلُّ من أراد أن ينفع فإنه ينفع على قدر استعداده».

....

ذلك ما قاله السيِّد الأستاذ الرشيد. وهو من خير ما قيل في هذا الموضوع الجليل. وإنه- على إيجازه واختصاره- جمع المعاني السامية، والآراء الصائبة. ولو عُمِل به، بل بجزء منه، لبلغنا الدرجة الرفيعة والغاية القصوى ممّا نتطلَّبه من الإصلاح، وما نفكّر فيه من رفع الأمّة من تدهورها، وسقوطها بين براثن الجهل، ومخالب الاضمحلال.

أجلْ، صدق الصوفي الحكيم بقوله: «إن لله عباداً متى أَرادوا أراد»، فإنه صحيح معقول، لا يدفعه ولا ينفيه إلّا من ليس له معقول. وهذا القول الحكيم مبنيّ على تلك القاعدة الجليلة الثابتة- نظام ربط الأسباب بالمسببات- وذلك أنَّ الله امر الإنسان بالعمل الذي هو سبب سعادته وروح حياته. ولا يكون عملٌ إلَّا بالنيّة والعزم والإرادة، وإلى هذا أشار النبيّ- صلّى الله عليه وسَلَّم- بقوله: «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى»؛ فمن أحسنَ النيّة، وتوجَّه للعمل بقلب ثابت، وإرادة ناضجة، فإن ما أراده من الأعمال كائن ألبتة، ضرورة وجود المسبّب عند وجود السبب. فالرجال، الذين يريد الله إذا أرادوا، هم أولئك العظام، أصحاب العزائم العظيمة، والنفوس الكبيرة، والهمم القعساء، والإرادة الشماء.

أولئك الذين إذا نَوَوا أمراً، أو عزموا شيئاً، توجَّهت إرادتهم إليه، وبذلوا ما في وسعهم دون تنفيذه وإجرائه. وحينئذ، تتعلَّق إرادة الله- سبحانه- بأن يكون ما أرادوا، لأنهم بذلوا الجهد، واستعملوا الأسباب التي أرشدهم إليها للحصول على ما يسعون وراءه. وحاشا لله أن يخيّب قوماً نهجوا المنهج القويم، وأتعبوا النفوس، وعملوا الأسباب الممكنة في سبيل تحقيق أمانيهم وإرادتهم.

كلُّنا يعلم ما كانت تقاسيه الأمّة، ممّا أصبحنا نسأم من ذكره، لأنه صار بديهياً لدى طبقات الناس كافّةً. فقد أنشئت الجمعيات السرّيّة للقيام ضدَّ الحكومة الهالكة لإبادة الظلم والاستعباد. ولكن، لم يفز أحد بما كان يريد، لأنه لم تكن هناك عزائم صادقة، ونفوس صادقة فدائية، ولا إرادة صحيحة تتوجَّه نحو دكّ معالم الجور والاستبداد. ولهذا لم ينالوا بادئ الأمر ما كانوا ينوونه من تخليص الأمّة وفكّ أغلالها وقيودها، غير أنهم لم يفتروا، ولم تكلَّ عزائمهم، ولم تضمحلّ نيَّتهم، بل ظلّوا مثابرين على ذلك، إلى أن كانت الإرادة الناضجة التي ولَّدت فيهم روح الفدائية والإقدام. فأقدموا، وأراد الله ما أرادوا، وكان ماكان ممّا عرفه الخاصّ والعامّ.

إن توجُّة الإرادة في مخلصي الوطن هو الذي أحدث هذه الأمور العجيبة التي أدهشت العالم بأسره. ولولا الإرادة والحزم لبقيت الأُمّة في حالة الخمول والجور، ولأصبحت الدولة في أسْر العداة، ولَأَمْست البلاد نهباً مقسَّماً.

رُبَّ قوم يقولون: إناَّ نرى كثيراً ممَّن يريدون أن يفعلوا، غير أنهم لا

يجنون من إرادتهم سوى خيبة المسعى، فلو أَنَّ الإرادة تفعل، لكان الناس في رخاء وهناء، وسعادة، وارتقاء.

فنقول: إن هؤلاء القوم الذين تعنونهم، هم أحد رجُلَيْن: رجل ضعيف الإرادة بليد الحزم، فهو إن خطر له عملٌ ما يريد أن يعمله، يكون بين الخوف والرجاء، ويعْتَورِه عاملا الإقدام والإحجام؛ فتارةً يريد، ثم يعرض له فكر، إمّا صحيح أو خطأ، فيرجع عن إرادته، فهو يقدِّم رِجْلاً ويؤخِّر أخرى، بين تلك العوامل التي تنتابهُ من كلّ الجهات، فكأَنه المعنيّ بقول القائل:

فصرتُ كأني بين شقَّيْن من عصا حذارَ الردى أو خيفةً من زيالكِ

فأجدِرْ بمن كان كذلك أن يقال عنه إنه لا أرادة له، ومن لا إرادة له فهو عن العمل بمعزل. والرجل الثاني هو رجل صحيح العزم، قويّ الإرادة، غير أنه يقدم على العمل قبل أوانه، ويريد أن يجني الثمرة قبل نضجها، فلا ينتظر الشيء إلى إبّانه ليقتطف فائدته. فعملُهُ- إذاً- عمل مبتسر «سابق أوانه». ومن أراد عملاً مبتسراً، فهو كالرجل الأوَّل من حيث إنهما يجتمعان في عدم نجاح عملهما، وسقوطه.

وهناك رجل ثالث، وهو وسط الرجلين، ليس عنده تقلُّب الأوَّل ولا عجلة الثاني، بل هو ثابت الجنان رابط الجأش، لا تغيِّره الحوادث، ولا تنهنهه الكوارث، يأخذ للأمر عُدَّته، ويهيِّئ له الأسباب، ويتحَيَّن الفرص لإنفاذ ما يريد. فإن رأى إنفاذ الأمر خيراً، أنفذه، فكان ناجحاً فيه، وإن رأى تأخيره أَوْلى، أَخره وترقَّب الأوان الذي يبدأ بتنفيذه فيه. ذلك الرجل، هو صاحب الإرادة الذي يعنيه السيِّد الرشيد في مقاله، ويريده ذلك الصوفي العظيم في

عبارته. أمَّا التهور في الأمر وإنفاذه قبل أن يأخذ المرءُ للشيء عتاده، فهو من الخطأ، والجهل بأسباب بلوغ المراد:

قد يدرك المتأنّي بعض حـــاجته وقد يكون مع المســـتعجل الزللُ

...

فمتى قويت روح الإرادة، فإنك ترى ما يدهش ويُعجب. ولكن، أَنّي لنا برجال ذوي إرادة تدفعهم إلى القيام بما يُنجح الوطن، وينهض به من هذه الكبوة، ويُنقذهم من تلك الهوّة، وأكثر رجالنا قد شغلتهم أنفسهم وأغراضهم الذاتية عن النظر فيما ينفع الأُمّة ويُقيلها عثرتها. فلو تجرَّد رجالنا الذين أودع الله فيهم الاستعداد لعظائم الأمور عن الأنانية، وتفرَّغوا لما يفيد، ووجَّهوا إرادتهم إلى نفع بلادهم، وصرفوها عن الشرّ، لبلغنا ما بلغه سَلَفنا من التقدُّم وإخضاع أُمم الأرض، بل كنّا نبلغ أكثر ممّا بلغوا، ونفعل أكثر ممّا فعلوا. ذلك لأن الوسائل في هذا العصر قد كثرت، وطرق الرقيّ والتقدُّم قد سَهُلت. غير أننا عن كلّ ذلك غافلون، وفي وادي الكسل والجهل نائمون، وفي تيّار الشرور والمفاسد غارقون، وبسفاسف الأمور مشتغلون، وعن كلّ ما يفيدنا لاهون، ومع ذلك، فإناً للإصلاح والترقّي طالبون، فهل ذلك يمكن أن يكون!؟.

أُمَّتنا خير الأُمم، وشعبنا خير الشعوب، فإنَّ الذكاء الفطري الذي منحنا أيّاه طيبُ المناخ وطبيعة الإقليم، ليس له مثال في جميع بقاع الأرض، غير أننا صرفنا ذلك الذكاء إلى تعاطي الشرّ والاشتغال بالعبث. في حين أنَّ غيرنا من الأُمم الأوروبية، بعد أن صحوا من سكرتهم، وأَفاقوا من غفلتهم، أجهدوا نفوسهم، وأتعبوا عقولهم، حتى وصلوا إلى ما نراهم

عليه الآن، من المدنيّة الباهرة والترقّي المدهش.

بلغ سَلَفنا من العلوم والمعارف شوطاً بعيداً، فقد كانت لهم اليد الطولى في جميع العلوم والفنون وكلّ ما يسمّونه العلوم الكونية أو العصرية، وكانت لهم مدينة زاهرة، ضُربت بها الأمثال، وقوة لا تُبارى أخضعت لهم الأمم، وملك عظيم مَدَّ جناحه على قسمٍ عظيم من المعمور، ولا تزال آثارهم العلمية، والفنّيّة، وبناياتهم الضخمةً الفخمة، ناطقةً بما كان لهم من الرقيّ والعمران. وما حصَّلوا ذلك المجد العالي والفضل الباذخ، إلَّا بما لهم من الإرادة العظيمة والنفوس الكبيرة، لكننا أضعنا ذلك السعي، فَبُؤْنا بخزي الأبد وعار الدهر. وذلك عارٌ علينا عظيم، لا يمحوه من لوح الوجود إلّا الجدّ والاجتهاد، لإرجاع مفاخر الاجداد، وتوجيه العزم الأكيد والإرادة العالية، لاقتباس العلوم وإنشاء المعامل والمصانع، والسعيُ الحثيث وراء كلّ أمرٍ نافع ينهض بالوطن، وبنيه.

رُبَّ قائل: إن إنفاذ الأمر وايجاد العمل يتوقَّفان على الإرادة، ولا إرادة عندنا، فأنت تطلب المستحيل.

وأنا أقول: إن الإرادة عندنا ثابتة، غير أننا صرفناها إلى مايضرُّ، لا إلى ما ينفع. والدليل على ذلك أن أحدنا متى وجَّه عزيمته إلى أمرٍ من الأمور السافلة، فإنه يبذل جهده وراء تحقيقه حتى يناله، ولو تحت شفار السيوف وصليلها، ورصاص المسدَّسات والبنادق. ونحن لا نطلب من أصحاب الإرادة والعلماء والأغنياء أن يصلوا إلى هذا الحَدّ من الخطر، وانما نطلب من العالم أن ينشر علمه، ومن الغنيّ أن يبذل ماله، ويسعى الكلّ، بإرادة وإخلاص، لتخليص الوطن من مخالب الجهل، كما خلَّصه

الجيش والأحرار من براثن الاستبداد والاستعباد.

فليكن عندنا رجال إرادة وحزم وعزم، يصرفونها في الخير، حتى ننال المراد، فـ«إن لله رجالاً إذا أرادوا أراد».

الألقاب والرُّتَب

الميل إلى المجد، والرغبة في الشرف، والسعي وراء النفوذ، خُلُق من أخلاق الإنسان، وشهوة من شهواته، يضحّي كلّ ما في وسعه للحصول عليها. وقد يؤدّي به ذلك إلى إنفاذ ما لديه من المال، ولو بقي صفرَ اليدين، أو إلى بذل دمه دون الوصول إلى مبتغاه. وأَمَّا الذين لا يعبؤون بهذا الأمر، فهم قوم صغار النفوس، ضعاف الهمم، خامدو العزيمة، لا يستطيعون حيلة يحتالون بها، لينالوا ما يسعى إليه أصحاب النفوس الكبيرة، والمدارك السامية، والهمم القعساء. وإن طُولبوا بأن يسعوا إلى المجد، ويجدُّوا وراء العلى، تعلَّلوا بما هو معروف عنهم، من رغبتهم في الانقطاع عن مظاهر هذه الحياة، وعدم الالتفات إليها. وقولهم هذا- لو علمت- رياء ومداهنة، وأحبولة يصطادون بها عقول السذَّج من العامّة. وهم لو كان عندهم عزيمة صارمة، وهمّة لا تعرف الملل، لسعوا إلى ذلك سعياً حثيثاً، وحصَّلوا ما حصَّل غيرهم، ولكنَّ حبَّ الراحة والميل إلى الدعة والإخلاد إلى الكسل- كلّ ذلك يدعوهم إلى الاستكانة، فهم كمن:

ظنَّ دين الله في تـــــرك الدُّنا ورأَى الإعـــــراض عنها أنفعا

وهو لو جـــــاءَته منها بـــدرةٌ طـــلَّق الدنـــيا وعاف الورعا

فهـــو لا زهـــداً بها عنها نأى لكـــنِ الـــجدُّ يُذيب الأضلُعا

خاف أن يســـعى فيدمي رجـله فـــرأى الراحـــة فيما صـــنعا

فالجدُّ في سبيل المجد، والتعب في ارتقاء مراقي العلى، خَلَّة حميدة، وخصلة يجدر بكلّ ذي أدبٍ أن يتخلَّق بها، ويهيم في جمالها، ويستميت في ميدان الجدّ لأجلها.

غير أَن الناس، في طلب ذلك وتفسيره، على مراتب ومذاهب، بعضها حميد، وبعضها قبيح. وهم كلُّهم في المبدأ، وهو نيل المجد والشرف، غير أنهم مختلفون في الغاية التي ينصَبون لأجلها، لاختلافهم في تفسير معانيها:

فقسم راقية عقول ذويه، قد عرفوا المجدَ الحقيقيّ فدلفوا إليه، والشرفَ الصحيح فعضُّوا عليه بالنواجذ. وهؤلاء يعتقدون أن المجد والعلى في التمسُّك بمعالي الأمور، والتخلُّق بالأخلاق الفاضلة، والسعي بكلّ ما في الوسع لاكتساب العلوم وتحصيل المعارف، وأن يعملوا كلَّ عملٍ يرجع على الوطن وبنيِه بما ينهض به إلى أوج النجاح، وأَن يسعوا كلّ السعي إلى ما يفيد الدولة ويرفع عنها أعباءَ الانحطاط. وهؤلاء لا يهمّهم رتبة ولا وسام، ولا لقب من ألقاب التعظيم، لأنهم إنَّما يعملون لخدمة الوطن والأمّة، غير ناظرين إلى مقصدٍ سواه.

والقسم الآخر قصَّر عن تلك المرتبة- وهو أن يكون له مجد باذخ، وفخر عالٍ، ومكانة سامية في نفوس قومه- فلم يجد واسطة لذلك سوى

السعي وراء تحصيل رتبة وطلبِ وسام، ليقال إنه من المقرَّبين من الدولة، وليخاطَب، في الرسميّات، بألقاب التعظيم والتبجيل، وهو لم يعلم أن المرء، بأدبه وعمله النافع، لا برتبته ووسامه. فإن المرء الذي لم تكن أخلاقه وأعماله وسامات يزيِّن بها صحيفة حياته وتاج مروءته، فلا ينفعه وسام، ولا تُعليه رتبة.

إن كثيراً ممَّن نالوا الرتب العالية، والوسومات المرصَّعة، في الدور الماضي، لم يكن لهم عمل يستحقّون عليه ذلك. ولو عُوملوا بالعدل لما استحقّوا إلّا الصفع على الرقاب، واللطمَ على الوجوه، والقصع على الرأس. غير أن بذل الأموال في تلك السبيل قد مهَّد لهم الحصول على هذا الأمر، ليقال: فلان صاحب السعادة أو العزّة أو الرفعة أو العطوفة أو الفضيلة أو السماحة، وليمشوا في أيّام الاعياد بالألبسة المزركشة، والنياشين المرصَّعة، ليلفتوا إليهم الأنظار، فيتيهوا عجباً واستكباراً. أَمَّا جَهَلة العامّة وضعفاءُ العقول من الخاصّة، فكانوا يغترُّون بهذه المظاهر الوهمية، وينحنون لأصحاب هاتيك الألبسة والوسامات إجلالاً. وأمّا أرباب العقول الصحيحة فكانوا يسخرون من أولئك الأقوام، ويضحكون من أعمالهم، ويأسفون على تلك الأموال التي بذلوها للحصول على هذه الأزياء والألقاب التي لا تسمن، ولا تغني من جوع. كما أنَّ الجميع، بعد الدستور، في الاستهزاء، سواء.

وا أَسفاه على تلك الليرات التي اختلسها رجال الدور الماضي وتجاَّرُ الألقاب والرتب من ضعفاء العقول، الذين لا يهمّهم إلّا أن يقال لهم

«عطوفتكم، سعادتكم، سماحتكم، فضيلتكم»، ولا يروق لهم إلّا أن يخرجوا في الرسميّات بحُللٍ زاهرات!.

وإني لأَشدُّ أسفاً على الذين استدانوا الأموال، واشتروا بها وساماً أو رتبة، وكثير منهم لم يخلصوا، إلى الآن، من أعباء ذلك الدَّيْن الذي أثقل عاتقهم، وأرهقهم عسراً.

إن أكثر مَنْ نال رتبة علمية جاهل مركَّب، لا يعرف للعلم معنًى، ولا يدري للفنون مغزًى، وإنك لترى أنَّ العلماء العاملين لم ينالوا ما نال أولئك الجهلة من الرتَب والألقاب، لأَنهم يحتقرونها، شأن كلّ عاقل. ولو طلبوها فليس لديهم من النقود ما يرشون به الذين كانوا يبيعون الأُمة والدولة بالدرهم والدينار.

وهكذا الشأن في أولئك المتموِّلين الذين اشتروا الوسامات والمناقب بِلَيْراتهم، وأولئك الذين استدانوا الدنانير، ورشَوْا بها الخائنين، ليقال إنهم من المقرَّبين.

أمّا وقد مضى زمن التمويه والتضليل، ولم يبق افتخار إلّا بالعلم والعمل الصالح، فقد رجعت الأشياء إلى أصولها، والمياه إلى مجاريها، فكان من حاز رتبةً أو وساماً وهو ليس أهلاً لذلك، فقد رجع إلى أصله، وتساوى ماضيه بحاضره، ويومه بأمسه.

فلنسْعَ جميعنا إلى طلب المجد والشرف الصحيحين من طُرقهما الشريفة، ووسائلهما النبيلة، وذلك بتحصيل العلم، وإنشاء المدارس

والمعامل والعمل النافع. فإنَّ هذا هو الفخار الحقّ، والمجد الصحيح، و«لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ».

حديث مع النابتة

إذا أردت أن تستدلَّ على مستقبل أمّةٍ من الأمم، وتستعرف ما ستؤُول إليه حالتها الاجتماعية، والعمرانية، والسياسيّة، فابحث عن أخلاق شبّانها، ونقّب عن أحوال نابتتها، فتقتطف النتائج من هذه المقدِّمات.

لأن نشءَ كلّ أُمّة عنوان مستقبلها ومادَّة ترقيها، فإن رأيت نبتاً مهذَّباً نشأ متعلّماً، فأبشر بآتٍ حميد ومستقبل زاهر، وبشّرها بأن ستكون أُمّة حيّة، تنال طلباتها، وتفوز برغباتها. وإن وجدت شبّاناً جاهلين، ونابتةً فاسدة الأخلاق، سافلة المبادئ، فاقرأ عليها آية التأخُّر، ثم أنذرها بالخراب، وحقّقْ لها أَن ستكون نهباً مقسَّماً، تعبث بها أيدي اللاعبين، حتى تكون عبرة للآخرين، وتلك سنّة الله في العالمين.

تلك سنّة الله، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، فقد حكم- وهو أحكم الحاكمين- أنَّ الأرض يرثها عبادة الصالحون، وينتزعها ممّن لا يقدِّرها قدرها، ولا يمشي في مناكبها مشية من يحسن استعمارها، ويستورد خيراتها، فالصالحون، في هذا المقام، هم من يعرفون كيف تؤكل الكتف، ويدرون من أساليب العمران ما يؤَهِّلهم لأن يكونوا ورثاءَ الأرض.

فالأمّة التي يكثر متعلّموها والمهذَّبون من شبانها، هي الأمّة التي ستكون

وارثة الأرض، والمالكة زمام استعمارها، والقابضة على صولجان الأمر والنهي فيها، والأمّة التي لا تكون كذلك، ستكون قيدَ الذل، وتبقى خادمة لغيرها ممّن هي أهل للاستعمار وجديرة بالحكم. والشواهد على ذلك أكثر ممّا يحصيه القلم، ويحيط به البرهان.

فالهمة في نشر المعارف مبذولة في كثير من البلدان، والساعون في هذا العمل المجيد- على قلّة عددهم- باذلون من المجد أقصاه، ومن الاجتهاد منتهاه. والأمل أن يُوفَّقوا إلى ما يقصدون إليه في أقرب مدّة، إذا أمدَّهم الأغنياء، وساعدهم العقلاء، وسهلَّت الحكومة لهم السبيل.

وإنّ أعظم من تُطلَب منهم المساعدة، أربابُ الثروة والغنى، في كلّ قرية ومصر من البلدان، فإن على المال المعوَّل في كلّ شأن من الشؤون، ولا نرى أغنياءَنا إلّا فاعلين، إن شاءَ الله.

النهضة، مهما كانت عظيمة، ومهما بلغت من التقدُّم، لا تفي بالحاجة، إذا لم يكن في الأمّة قادة كبار متعلِّمون التعليم الراقي، وعارفون أصول التربية والتعليم الحديثة، وليس لدينا من هؤلاء إلّا النزر اليسير الذي لا يقوم بجزء ممّا نحتاج إليه؛ لذلك وجب على الأُمّة أن تختار من أبنائها من هم أهل فطنة وإقدام وأخلاق شريفة، وتقذف بهم إلى مدارس الغرب، حيث ينالون منها قسطاً وافراً ممّا نحتاج إليه، ثم يرجعون إلينا وقد ضربوا، من العلوم والفنون وتطبيق العلم على العمل، بسهام. على شرط أن يعودوا كما ذهبوا: من غير أن تؤثِّر في نفوسهم عادات الغربيِّين واخلاقهم التي لا تمتزج بعاداتنا وأخلاقنا. فليس كلّ ما يأتيه الغربي بنافع لنا. ورُبَّ عاداتٍ لأولئك يعدُّونها من أصول المدنية، ونعدُّها

من فساد الأخلاق، والتوحُّش الذي لا يطاق، فإن العبادة تختلف، حُسْناً وقبحاً، باختلاف الأمّة والبيئة التي تقطنها.

إن بعض من يرحل إلى الغرب تؤثِّر في نفسه عادات أهله وأخلاقهم وسياستهم. فإذا رجع إلى قومه أخذ يحدِّثهم بما رآه، و- ربَّما- استحسن كثيراً ممّا نراه مخالفاً لأخلاقنا وعاداتنا وما فُطِرنا عليه من التعاليم الدينية . وبالطبع، ليس ما استحسنه ممّا يجرُّ نفعاً، أو يدرأُ ضرراً، وإنما هو ممّا نراه مدعاة التهتُّك، ومجلبة فساد الأخلاق، ويراه الغربيّون من تتمّة المدنية ولوازم المتمدِّنين.

والسرُّ الذي يدعو بعض الراحلين إلى الغرب إلى استحسان ما قدَّمنا، هو أنهم لم يتربّوا، منذ نشأتهم، تربية شرقية، ولم يتعوَّدوا الأخلاق الصحيحة، ولم تُغرس في نفوسهم أغراس الدين، حتى تكون طبيعةً من طبعائهم، ولازمةً من لوازمهم، وهذا نقص كبير في مدارسنا وبيوتنا، يجب أن يتنبّه إليه الآباء والمعلِّمون. وربَّما- سبَّب ذلك نفرة الناس، وأضاع كثيراً من الفوائد التي نتوخّاها من الشباب الذين يهجرون ديارهم لتحصيل العلم.

إن من نرسلهم إلى الغرب، لا نرسلهم لاكتساب أخلاق لا تتَّفق مع عاداتنا الشرقية، وأخلاقنا الملّية، وإنّما نبعث بهم للعلم المجرّد واكتساب ما ينفعنا في حياتنا الدنيا، لا غير. لأن ما لدينا من الأخلاق العالية، والعادات الشريفة، هو خيرٌ لنا وأنفع لبيئتنا، ويجب أن نحتفظ به كلّ الاحتفاظ، ونذود عن حياضه بكلّ قوانا، لأن الأُمة التي لا تحافظ على عاداتها، ولا تدافع عن أخلاقها، لا يمضي عليها حينً من الدهر حتى

تكون كأمس الدابر:

وإنّما الأمم الأخلاقُ مابقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وليس ذهابهم واندثارهم هو محو مجموعهم المحسوس من لوح الوجود، وإنما هو اندماجهم في الأُمة التي يتخلَّقون بأخلاقها، ويستعيدون عاداتها.

فذهابهم هو ذهاب قوميَّتهم بذهاب أخلاقهم، واندثار لغتهم، كما حصل لكثير من الأمم التي داست عاداتها وأخلاقها، وتطوَّرت بأطوار الأمم المجاورة لها، والتي تلقَّت العلم عنها، أو تزلَّفت إليها. وماذلك إلّا لضعف الأخلاق فيها، أو لمرض الإرادة التي هي سبب قويّ لنهوض الأمم.

فإذا أراد الشبّان الراحلون إلى أوروبا أن يمحوا أُمّتهم، ويضيِّعوا قوميَّتهم، فليكونوا كما يفعل البعض منهم، ولا نخالهم فاعلين ذلك. وإذا أحبّوا أن يحفظوا أُمّتهم، ويُبقوا قوميَّتهم، فليذودوا عن أخلاقها، وليدرأُوا عن عاداتها، ولا نظنّهم إلّا فاعلين، إن شاءَ الله.

إنّا نشاهد الأجانب الذين يأتون بلادنا سائحين أو مستوطنين، محافظين كلّ المحافظة على عاداتهم وأخلاقهم، مفتخرين بالمحافظة عليها. ولذلك نراهم- مهما قطنوا بلادنا- أُولي حِفاظ شديد على ما تربّوا عليه. بل نراهم عاملين، بكلّ قواهم، على نشر مبادئهم وأخلاقهم بين أهل بلادنا.

نحن لانطلب، الآن، من شبابنا أن ينشروا عاداتنا وأخلاقنا بين القوم الذين يتلقَّون عنهم العلم، بل غاية ما نطلبه منهم أن يظلّوا محافظين

على أخلاق قومهم، وأن يرجعوا إليهم كما ذهبوا، حتى يمكنهم الاختلاط بهم، وبثُّ المبادئ العالية والعلم الصحيح فيهم. والشرط، كلُّ الشرط، أن لا يروا أنفسهم أرفع من قومهم؛ بحيث يحتقرونهم، فإن ذلك لا يُنتِج إلّا التنافر، وهو يضيِّع الفائدة المبتغاة من ذهابهم إلى الديار الأجنبية لتلقّي العلوم.

...

وهنا أحبّ أن أفاوضهم بحديث هو، من الأهمّيّة، بالمكان الذي يستحقَّه كلّ أمرٍ مهمّ، وهو أنَّ بعض من أتكلَّم عنهم يرجعون وقد علق في نفوسهم شيء ممّا يتعلّق بالأديان، فتراهم يتكلَّمون غير مبالين بما ينجم عن ذلك من قرون الشرّ. وأنا اعتقد أن كلامهم ليس عن إلحاد، إنّما هو عن شُبَهٍ يودُّون إزالتها، قد أثَّرت في أذهانهم بسبب ما يسمعونه من الملاحدة أعداء الأديان. وهذا ليس مختصّاً بالراحلين إلى الغرب، بل هو شامل بعض من يسمّون أنفسهم متنوِّرين. فعلى هؤلاء أن يدرسوا أسرار الدين وحكمه، ويتلقّوه عن أهله العارفين بتاريخه وفلسفته، وإن مرَّ بخاطرهم شيء من الشُّبَه، فعليهم أن يسألوا أهل الذكر والأفاضل، لا أن يتشدَّقوا بذلك أمام مَنْ صَغُرت عقولهم، وضؤلت نفوسهم، فإنَّ ذلك مدعاةُ التنافر ومجلبةُ التخاذل.

إن أرادت نابتة الأمّة أن تنهض وتسير بقومها في السبيل القويمة، فعليها أن تحافظ على الأخلاق والعادات التي تعوَّدناها، وأن تكون متديِّنة صالحة، فلا رقيَّ للشرق إلّا بالعلم والأخلاق التي تناسبه، خصوصاً بالدين الذي يهذِّب الأخلاق، ويطهّر الأعراق. فإلى العلم

والأخلاق والدين، أيَّتها النابتة الكريمة.

أنا لا أعتقد- كما يعتقد الكثير- بأن هذا القسم من النشء سيِّئ الاعتقاد، أو لا اعتقاد له بالمرّة، أو أنه يحبُّ إهانة الدين. وإنَّما أعتقد أنه ذو اعتقاد صحيح، وغيرةٍ على الدين عظيمة، لكنه منتقد بعضَ ما لا دخل له في الدين، وليس من أصوله ولا من صحيح فروعه؛ أعني أنه يتهكَّم على ما أحدثه المبتدعة من الخرافات والبدع، وقالوا: «هذا من عند الله» ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ ألا ساءَ ما يعملون. فإذا سمعه العامّة يظنّون أنه يطعن في الدين، وما طعنُه إلَّا في الزوائد التي ليست من الدين في شيء، بل هي ممّا يجب على مصلحي العلماء أن يسعوا وراءَ إزالته ومحوه، حتى يبقى الدين خالصاً من كلّ شائبة، نقيَّاً من جميع الأدران.

نعم، ليس عندي شكّ في أن اللهجة التي يستعملونها في انتقاد البدع شديدة، تنفّر السامع، وتَدَعُ في نفسه الشكّ من حال المنتقد. فلو استعملوا التؤُدة في إظهار الحقيقة، وتروَّوْا في الانتقاد، واستشهدوا على مُدَّعاهم بما ورد في الكتاب والسنّة الصحيحة، لأذعن الخصم إذعاناً، وبهذه الوسيلة لا يتركون في نفس المنتقَد عليه شبهةً ولا خاطرة تمرُّ في ذهنه فتثير فيه التعصُّب الذي يحمله على سوء الظنّ بمن يجادله.

وربَّما تهاون بعض النابتة ببعض الفروض الدينية، لا عن كفرٍ ولا إلحاد، وإنّما الداعي إلى ذلك الكسل، فيرميهم بعض الجهلة بالإلحاد، ويصمهم بالمروق من الدين. ومن الغريب أن كثيراً من هؤلاء الذين ينسبون إلى غيرهم الكفر لتهاونهم في بعض الأعمال، هم أنفسهم متهاونون بها، أو بأعظم منها، فلو لم يتهاون بعض النشءِ ببعض

الأعمال الدينية، بل ثابروا على أدائها وواظبوا على الإتيان بها، لقطعوا بذلك ألسنة الخرّاصين الذين يقولون إنهم كفار أو ملحدون؛ من جرّاء ترك بعض الفروض.

أجل، ربَّما وُجِد أفراد لا يُعبَأُ بهم، قد فسدت عقيدتهم، فهم يهرفون بما لا يعرفون، ويتطوَّحون بالكلام الفارغ الذي لا يفيد إلّا النفور، ولا يجدي غير تفرُّق الكلمة. ولو سألت هؤلاء أن يبيِّنوا لك موضعاً واحداً من النَّقْد، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لأنهم مقلِّدون لم يدرسوا من أصول الدين ولا فروعه شيئاً، وإنما قرأوا في بعض كتب الملحدين من الأوروبيِّين، ومَنْ نحا نحوهم، فعلقت في نفوسهم شُبَهٌ ممّا قرأوه، لأنها أتتهم وقد أَلْفَت في قلوبهم متَّسعاً، فضربت أطنابها. فلو أنَّ هؤلاء درسوا من الدين ما يكفيهم مؤونة ما يردُّ عليهم من الشُّبَه والاعتراضات، لأحسنوا صنعاً.

إن هؤلاء المقلِّدين هم أعداءُ العلم، أعداءُ ترقية الأمّة، وإن كانوا يزعمون أنهم من أنصار المعارف. و- ربَّما- عجبوا من هذه النسبة إليهم، لأنهم تملَّصوا من الدين لأجل العلم، بزعمهم. فأقول لهم: لا تعجبوا، ومتى ظهر السبب بَطُلَ العجب. إنكم، بإظهار فساد عقيدتكم، وتظاهركم بما ينافي الدين، تنفِّرون الناس منكم ومن العلم. لأنهم يظنون أنَّ الذي أفسدكم هو العلم، كما صَرَّح بذلك كثير من الناس. ومتى رسخت هذه العقيدة في النفوس كانت حائلاً عظيماً دون إرسال القوم أولادهم إلى المدارس العالية، لأنهم يفضِّلون أن يبقى أولادهم ناقصي العلم، على أن يكونوا ناقصي الدين. وهذه جناية كبيرة على العلم والدين، سببها تهوُّر البعض، وتظاهرهم بعدم الدين، تقليداً لمُلْحِدي أوروبا، ليقال إنه غير

مقيَّد، وما هو إلّا مقلِّد مقيَّد، يقول ما لا يعلم، ويدين بما لا يقوم عليه برهان صحيح، ولا دليل رجيح.

أنا أعرف رجلاً متديِّناً منوَّر الفكر، له ثلاثة أولاد، قد قذف بهم إلى المدارس العالية، وهو يتكبَّد مصرفات عظيمة، فضلاً عن تحمُّله آلام البعد عنهم. وقد سمعته، منذ مدّة، يقول: يترجَّح عندي أن لا أُرسلهم، بعد الآن، إلى المدارس، بل سأرمي بهم إلى المزارع. فسألته عن السبب، فقال: خير لي أن يبقوا متديِّنين متمسِّكين بعقائدهم، من أن يكونوا فلاسفة علماء، وليسوا على شيء من الدين، كما نشاهد بعض المتعلّمين كذلك. فقلت له: يا هذا! ليس العلم هو الذي يقلّل التديُّن، بل هو ممّا يُعين المتديِّن، ويكون له سلاحاً يحارب به الإلحاد. وإنَّما الذنب على الآباء الذين لا يربُّون أولادهم تربية دينية راقية، بل يرسلونهم إلى المدارس العالية قبل ذلك، وإني آمنٌ من أولادك فلا خوف عليهم، ولا بأس.

إن عمل هؤلاء المتطوِّحين، وانتهاكهم حرمة الدين، سيكونان- إن لم يتنبَّهوا- وسيلة لمنع الناس أبناءَهم من التعليم العالي، وضربة قاضية على العلم والأمّة معاً. فهلّا أدركوا مقدار الضرر الناجم عن تهوُّرهم! وهَلاّ عرفوا إلى أَيّة هاوية هم سائرون بأنفسهم وبأُمَّتهم!.

إن مثل هؤُلاء المفسدين يجب أن يُنبَّهوا إلى هذا السرّ. فإن تعقَّلوا وأَنابوا، فَبِها، ونعِمَّتْ. والأوجب على الأمّة- خصوصاً الفئة المتعلّمة منها- أن ينبذوهم نبذَ النواة؛ لأنهم أعداءُ العلم، أعداءُ الترقّي، بسبب ما يعملونه من الأعمال التي تنفّر الأمّة من العلم.

هذه كلمات وجيزة، أُرسلها إلى البعض من النشءِ الجديد المتشدّقين، لعلها تكون واعظاً ومذكّراً لقوم يعقلون.

الانتقاد ومشارب المنتقِدين

السعي وراء الحقائق دأب كلّ عاقل يربأ بنفسه أن يردَ موارد الأوهام، والظنون، وشنشنة المرء الذي لا يهمه إلّا التنقيب عمّا هو حقيقة راهنة لا تقبل الإيهام. فمعرفة الحقيقة واستطلاع شؤُونها غاية ما يتطلَّبه العقلاء، ومنتهى ما يسعى لأجله الأدباء.

وقد زعم قوم أنْ لا حقيقة في الوجود. وهذا قول صادر عمَّن لا رويّة له، ولا تعقُّل، إنْ قُصِد به نفيُ الحقيقة. وقد يكون له وجه من الصحّة، إن أراد بذلك أَنَّ الحقيقة مستورة مقدَّمة بأباطيل المبطلين، وأستار المموّهين، الذين يرون الحقَّ أبلج، غير أنهم يعدلون عن الجهر به لأعراضٍ لهم: كخوفٍ من مستبدٍّ، أو خجلٍ من الإقرار بالخطأ، وغير ذلك. فإن كان المدَّعي من هذا القسم، فهو ممَّن يمكن إقناعهم وإرجاعهم إلى الوجه الحقّ بالبراهين والأدلّة التي لا تقبل الردّ.

ومتى ثَبُتَ أَنَّ في الوجود حقيقة راهنة، فلابدَّ من السعي وراءها، وذلك دأب من تحرَّكت في جسمهِ عاطفة الأدب، وجرى في جثمانه دمُ النبل. غير أَن معرفة هذه الحقيقة صعبة على من لم يحلب الدهر أشطره، ويعرف حلوَه ومرَّه، لأنَّ تحصيل هذه المعرفة يتوقَّف على إذكاء نار الجدّ، وإيقاد جذوة الطلب والاجتهاد، والمباحثة والمذاكرة، والردّ

والاعتراض، والمناقشة والانتقاد.

عرف فائدةَ ذلك العقلاء، فدرجوا عليه، وتحقّقوا فوائده، فاتَّخذوه أساساً لأعمالهم، ورائداً لهم في أمورهم. حوِّلْ نظرك إلى تاريخ من تقَّدم من سَلَف العلماء، فترى أن مجالسهم كانت تغصّ بالأدباء، وتموج بأمواج العلماء: هذا يفيد، وذاك يعترض، والآخر ينتقد. ووجهة الكلّ واحدة، وهي نصرة الحقّ، وإظهار الصحيح من قواعد العلم- اللهمّ- إلّا ما شذَّ عن ذلك، وهم قليل، لا يُعبَأ بهم، ولا يُلتفَت إليهم.

الانتقاد يمحّص الحقائق، ويُثير الأذهان، ويوسِّع نطاق العقول، ويبرز الحقيقة من خفايا الوجود بأبهى حُلَلها وأجمل برودها، تتجلّى للرائين كالغزالة عند الطلوع، فتعشو، عند ذلك، عيون المكابرين، فيرتدّ بصرهم خاسئاً وهو حسير.

ليس شيء كالانتقاد مُظهِراً للعيوب كي تُجتَنَب، ومبيّناً للخطأ ليُصلَح، ومميِّزاً للصواب من الخطل «فأمَّا الزبد فيذهب جُفاءً، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

ليس من أُمّةٍ حَطَّت عنها أعباءَ الكسل، ورمت بإهمالها إلى أقصى مكان، إلّا كان الانتقاد هو الداعي الأكبر، والسبب الأقوى في تقدُّمها؛ ولذلك نرى أنَّ مقدار ارتقائها إلى أوج السعادة في المعرفة والمدنيّة، بكثرة عدد المنتقدين فيها، واقتدارِهم على معرفة مواضع النقد ليظهروها، وحذِقهم في مجال العلّة فيخرجوها. وما المنتقدون إلَّا كالأطبّاء؛ يرون العلل وأسبابها، فيعملون على تطهير البدن منها، ويَصِفون لها من العلاجات والأدوية ما يكون عاملاً على إخراجها، وإراحةالجسم من

أذاها. هذا إذا كان الطبيب نطاسياً حاذقاً، يقيس الأشباه بالأشباه، والنظائر بالنظائر، وليس فهمُهُ قاصراً على ما درسه، وإلّا فيكون ضرره أكبر، وخطبه أعظم.

وكذا المنتقد، يجب أن يكون ذكيّاً عالماً بمكان العلّة والزمان الذي لا تخرج إلّا فيه، حكيماً بكيفية وصف الدواء وطريقة الانتقاد، يخاطب كلّ إنسان على مقدار عقله، وبحسب ما عنده من الاستعداد. فلا يطوِّح بلسانه أو قلمه إلى غير الغاية التي من أجلها نصَّبَ نفسه منتقداً. ولا يكنْ بذيء اللسان متهوّر الفلم. فإن فعل ذلك فقد ضلَّ الغاية، وحُرِم ثمار النتيجة. وأَوْلى له، حينئذ، أن ينتقد نفسه، ويحملها على سلوك طريق الأدب.

كلّ إنسان يروم أن يكون كلامه فصيحاً، ورأيه صحيحاً. لكن، من أين له أن يتحقَّق ذلك من نفسه قبل أن يحكم به جمهور العقلاء، مع التجرُّد عن الغايات السيِّئة؟ لعَمْري، لا يمكنه ذلك؛ لأنَّ العقل الإنساني كثير الخطأ وافر الخطل، لا يقدر أن يستقلَّ بمعرفة كثير من الأمور؛ فلا يعرف المرءُ صحّة رأْيه من فساده إلّا بعد أن ينتصب فريق المنتقدين، ولفيف المرشدين، فيهدوه للصواب، ويرشدوه للمهيع الحقّ، وبذلك تُقال عثراته، وينجو من الزلل.

لولا الانتقاد لَما بعث الله الأنبياء، وعلَّم العلماء، وأَمر الناس باتِّباعهم، والاستماع لنصائحهم؛ إذ الغاية من إرسال الرسل انتقادُ العادات والأخلاق، ليرجع الناس عمَّا ألِفوه من الباطل، واتَّبعوه من العقائد الفاسدة، والأخلاق الكاسدة، وبذلك تصلح حالهم، وتستقيم سبيلهم،

فيكونون سعداء الدارَيْن.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللذان أُمِرْنا بالعمل بهما، على لسان الأنبياء، هما فرعان عن الانتقاد، أو هما الانتقاد عينه. لأنَّ النهي عن المنكر يجوز أن يعتبر به عموم اللفظ، فيصحّ حينئذ، أن يُراد ما كان منكراً في الدين، وما كان منكراً في شريعة العلم، فإن رأينا أحداً يفعل شرّاً نهيناه عنه، وأمرناه بضدِّه. وكذا لو رأينا أحداً يقرّر مسألة في العلم خطأً، علَّمناه صحّتها، ونهيناه عن الاعتقاد بها خطلاً.

مشارب المنتقِدين

مشارب المنتقِدين شتّى، تختلف باختلاف أخلاقهم، وتبايُن أذواقهم، وقد قيل: اللسان ترجمان القلب، والقلم أحد اللسانين. فيُستَدلّ على طيب أخلاق المنتقد، ولطافة طبعه، وحسن قصده، بما يبرزه على لسانه أو قلمه من الألفاظ والجمل، والعكس بالعكس.

فمنهم من يستعمل التؤُدة والتأنّي، ولا يتسرَّع في الانتقاد إلَّا بعد أن يَخْبَر المنتقَد عليه خبرةً تامّة، ويفكّر فيما قاله تفكيراً، ثم، بعد ذلك، يشرع في نقدِ قوله أو فعله، متسلّحاً بالأدب التامّ، واللطافة في التعبير، عادلاً عن الألفاظ التي تنفِّر المنتقَد عليه، ويقارعه بقويّ البرهان ومتانة الحجّة؛ وغايته من ذلك إظهارُ الحقّ، وتبيان الصحيح من الفاسد، ليس إلّا، فلا يَقصدُ من المجادلة تسفيه رأي المناظر، ولا فضحَهُ بين الناس بإظهار جهله وعيوبه، لانَّ ذلك ممّا حرَّمه الشرع والعقل. فمن نحا هذا

المنحى من الجدال فهو رجل أنانيّ متعجرف، يجب أن يُطرَح في زوايا الإهمال، وأن لا يُنظَر إليه إلّا بعين الاحتقار والازدراء، لأنّه اتَّخذ الحقّ ذريعة للتشفّي من الناس وفضيحتهم. فهو لم يطلب الحقَّ لذاته، بل لأغراضه السافلة. فهو يجادل عن حقٍ، لكنه أراد به باطلاً. ومن نحا غير هذا النحو، متَّخذاً الانتقاد ذريعة لإحقاق الحقّ، لا لهوًى في النفس، فبشِّرْه باقتناع الخصم وخضوعه لديه؛ وبذلك تتمّ الفائدة المرغوبة، وتحصل النتيجة المطلوبة.

ومن المنتقدين مَنْ إذا رأى هفوةً من أحد، أرغى وأزبد، وتسرَّع في النَّقْد، وسلَق الخصم بألسنةٍ حِداد، ورماه بصخورٍ من الحدّة شِداد، سلاحه بذاءة اللسان، وحدّة القلم، وغير ذلك من الوسائل التي تضيع معها الحقيقة، وتجعل المنتقَد عليه لا يقرّ بالخطأ، وإن كان مخطئاً. وكثير من هؤلاء ليس قصدهم إظهار الحقّ، بل إبداء عيوب الخلق، والإبانة عن جهلهم وتسفيه آرائهم. على أنَّ جمهور هذه الفئة، كثيراً ما يخطِّئون المصيب، ويصوِّبون رأي المخطئ، وذلك لعارض يعرض لأحدهم، فيظُّن في نفسه النباهة والرئاسة والحكمة، وأن كلّ ما قام بذهنه هو الصواب، فإن رأى شيئاً من غيره قام وقعد، وسفَّه رأيه، وأنكر عقله، وسَلَبه ما أُوتيَه من علم ومعرفة، وتقوى وفضيلة، ووصَفَه بالجهل والزندقة والمروق من الدين، إن كان الجدال في أمر ديني، وإن كان في مسألة علمية رماه بنبال الغباوة، ونقص العقل، وقلّة الاختبار، والتجرُّدِ من العلم، بل من كلّ فضيلة.

على أني لا أُنكر أنَّ البعض، ممَّن هذا شأنه، قد تكون غيرته على العلم أو الدين هي التي تدعوه إلى ذلك. لكن، يجب عليه أن يتكلَّف التأنّي.

وحفظ القلم أو اللسان من أن يسبحا في بحور الشطط، ويتيها في بيداء البذاءَة والسفاهة والوقيعة في الناس، لأنّ ذلك مضيع للفائدة، عقيم النتيجة، بل كثيراً ما يكون المنتقدُ هو المخطئ، والمنتقَدُ عليه هو المصيب. فتسرُّع المنتقد وتهوُّره يرجعانه بخُفَّيْ حُنَين، والخجل قد علا منه الوجنتَيْن، فتنظر إليه الناس شزْراً، وترمقهُ احتقاراً. فإن تأنّى المنتقدُ، وتلطَّف في الانتقاد، ثم تبينَ خطؤه، فهو- وإن خجل من نفسه- مرموق عند الناس بنظر التعظيم، لأن غايته حسنة، وقصده نبيل، شأن كلّ أديب مهذَّب.

اتِّباع الحقّ متى وَضُح

متى وَضُح الحقَّ، وظهرت آياته، وجب على المنصف أن يتَّبعه ويقرَّ بخطئه، أيّاً كان المناظِر أو المنتقِد، لأن الحقّ أحقّ أن يُتَّبع. وقد ورد في الحديث: «خذ الحكمة، ولا يضرُّك من أيّ وعاء خرجت». وطالما أن القصد من المناظرة أو الانتقاد هو إحقاقُ الحقّ وإبطالُ ما عداه، فيجب على كلا الطرفين أن يُذعن له متى بدا بالأدلّة التي لا تقبل الريب. ولا تحدّثِ الإنسانَ نفسُه بأنَّ قبوله للحقّ فيه شينٌ له وإظهارُ عيوبه، لانَّ الإقرار بالحقّ هو عين الصواب، وفخرٌ لمن كان له عقل، ونحا منحى أولي الفضل الصحيح. قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «إذا سُئل أحدُكم عن شيء لا يعلمه، فليقل: لا أدري. رحم الله امرَأ اهدى إليَّ عيوبي».

هذا، وإنَّ المعترف بالخطأ تكون له المكانة السامية في قلوب الناس،

ويجلّونه منتهى الإجلال، لأنَّ اعترافه بذلك يدلُّ دلالةً صريحة على أنهُ رجل حرٌّ صادق لا يخاف في الحقّ لائماً، والعكس بالعكس. قال الإمام الشافعي: «ما أوردتُ الحقَّ والحجّة على أحد فقَبِلها منّي إلّا هِبْته، واعتقدت مودَّتهُ. ولا كابَرَني أحدٌ على الحقّ، ودافع الحجّة إلّا سقط من عيني، ورفضته».

تلك فائدة الانتقاد الحقّ، وهذه مشارب المنتقدين، فاختر أيَّها شئت، بعد ما بينَّا مزايا كلّا الفريقّين.

خلاصة شروط الانتقاد

للانتقاد شروط وآداب، ينبغي للمنتقِدِ مراعاتها والسير في جادّتها. وللمنتقَدِ عليه شروط، كذلك. فمتى راعى كلّ منهما ما وجب عليه من الأصول التي يلزمه اتِّباعُها ظهر الحقّ، ووضح الأمر، وبَطُلَ قول زيدٍ وعمرٍو، فكان كلّ منهما راتعاً في بحبوبة الصواب، آمناً من العثار في عقبات الأكدار، والنزوع إلى حسام العدواة والأحقاد.

وإنّا ذاكرون شيئاً من تلك الآداب والقواعد التي يجدر بالمنتقِدِ والمنتقَدِ عليه أن يجعلاها نُصْبَ أعينهما، ولا يُغفلاها طرفة عين:

الأوَّل: مناظرك نظيرك؛ فلا يجوز احتقاره ولا الازدراء برأيه، مهما كان سافلاً أو خطأً، بل يجب أن تلاطفه وتجامله، إلى أن تفري، ببرهانك القاطع، رأس رأيه الفاسد، وتُنير، بدليك الساطع، غياهب فكره المظلم. إذ ليس المراد من الانتقاد نَقْدَ الشخص نفسه، أو إظهار أَنه فاسد، من

حيث إنه فاسد، وإنّما القصد تبيينُ الصواب وإظهار الحقّ، وإرشاد مَنْ حاد بفكره عن منهج السداد، أو أسقطه رأيه عن منصَّات الرشاد. وإذا كان الغرض كذلك، فالازدراء بالمناظر، والحطُّ من كرامته، يحولان دون الوصول إلى المطلوب، ويمنعان الخصم من الاعتراف بالحقّ، أيّاً كان المحقّ، وقد ورد في الحديث: «من أمَرَ بمعروف، فليكن أمرُهُ بمعروف»؛ أي مَنْ نَصَّبَ نفسه لوعظ الناس وإرشادهم وانتقاد عاداتهم وأخلاقهم، فليستعمل التؤَدة والتأنّي والمعروف من القول؛ فلا يتهوَّرْ بلسانه أو قلمه، بل يجعل الحكمة في النصيحة نُصْبَ عينيه.

الثاني: كلّ دعوى لم تكن مقترنة بالدليل، فهي ساقطة عن درجة الاعتبار، فلا تدَّعِ دعوى قبل أن تقتل البرهان علماً.

الثالث: لا تستعمل الحدّة في كلامك، إن كنت أديباً في ألفاظك، فالحدّة لا تُنتج المقصود، بل ربَّما أذهبت المطلوب.

الرابع: يقول علماءُ الجدل وآداب البحث والمناظرة: «إن كنت مدَّعياً فالدليل، أو ناقلاً فالصحّة»؛ أي إن كان كلامك دعوى من قِبَل نفسك، فاجعل البرهان سياجاً لها يمنع الداخل، ومجنّاً يدفع نبال المناظر وسيف المجادل. وإن كنت ناقلاً لكلامك عن كتاب، فأثبت ذلك النقل، وصحّحْ ما نقلت.

تلك أصول أربعة، إذا اعتصم بها المناظران، وتمسَّكا بأهدابها، وصل كلّ منهما إلى ما يريد من إظهار الحقّ.

هذا ما أردنا إيراده موجزاً تمام الإيجاز، لأن المقام طويل الأذيال واسع

الأردان، فعسى أن نسير جميعاً في هذه السبيل، فنفوز بما نروم من القصد، فالحقيقة بنت البحث، والله الموفِّق للصواب.

سعادة الحياة

الحياة ثروة للمرء، فإمّا أن يحتفظ بها، ولا يفرّط فيها، ولا يصرف منها شيئاً إلّا عند الحاجة. وإمَّا أن يبذر ويجود بها لأقلّ سبب، سواء أكان محموداً أم مذموماً. ضاراً أم نافعاً، جائزاً أم محظوراً. وبحسب احتفاظه بثروته وادِّخارها إلى وقت الحاجة إليها تكون سعادته فيها واجتناء الفوائد منها.

خلق الله الإنسان، ووعده السعادة والخير، إن هو سار في السنن التي سنَّها. وأَوعده الشرّ، إن هو حادَ عن طريق الهدى، ولم يتَّبع الطريق السويّ، وأَبان له الأسباب وعرَّفه المسبِّبات. وأوضح له أنه خُلق للسعادة، وأنه لا يسلبها عنه ما دام منتهجاً سننها، معتصماً بحبلها. وتلك الأسباب التي عرَّفه إيّاها ظاهرة لكلّ ذي عقل سليم، غير أن اتِّباع الهوى، والميل إلى الشهوات، والسعيَ وراءَ المنفعة الخاصّة- كلّ ذلك يصرف المرء عن النظر في شؤون الحياة الحقيقية، ويصدف به عن الميل إلى ما فيه سعادة حياته، وهناء معيشته.

بينا نرى أحد الناس ذا ثروة طائلة، وعيشة راضية، وقصور فخمة، وأثاثٍ ورياش، وخدم وحشَم، وغير ذلك من وسائل الرفاه وأسباب النعيم، إذا هو أصبح فقيراً لا يملك نقيراً ولا قطميراً، فيخدم بعد أن كان مخدوماً،

ويعمل للناس بعد أن كانوا يعملون له. ولو بحثت عن أسباب فقره بعد الغنى، وبؤسه بعد النعيم، وذُلّه بعد العزّ، لرأَيت أنَّ الأسباب كلَّها ترجع إلى شيء واحد، وهو العدول عن سنّة الله في خلقه، وعدم اتِّباع المناهج التي انتهجها، ليسلكها من أراد أن يكون سعيداً في حياته.

صاحب الثروة والغنى، أمَره الله أن لا يكون بخيلاً شحيحاً، بحيث لا ينتفع بجزء من ماله أولو الفاقة والفقر، كما أمره أن لا يكون مبذِّراً يُذْهِب الأموال، ويجود بها لأمرٍ غير مشروع، أو عملٍ غير مبرور. بل أوجب عليه أن يكون وسطاً بين التبذير والشُّحّ؛ بحيث يصرف المال في حاجة، وراءَها نفع مشروع له أو لغيره من عيال الله. فإن خالف ذلك لأمر، وطرق باب البخل، عاش في الدنيا كئيباً كاسف البال متعباً ضيِّق الصدر. وإن صرف أمواله جُزافاً، فلا يمضي عليه زمن إلّا ويصبح صفر اليدين، فارغ الصناديق، فيندم حيث لا ينفعه الندم، فهو، في كلتا الحالتَيْن، من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة. أَما أن بقي محافظاً على سلوك الطريقة الوسطى، فهو سعيد في حياته لعدم وجود ما يكدِّر صفوه من الوسائل التي تذهب بأمواله، وتدَعه في حرجٍ عظيم. فانحراف الأَوَّلَين عن النهج القويم أَذهب بسعادة حياتهما، واعتصام الثالث بحبل الفضيلة وعدم الميل إلى طرفي الأمر أبقاه في سعادة دائمة وعيش رغد.

هذا إذا نظرنا إلى جهة السعادة والشقاء، من حيث النعيم بالمال وغيره، وإن نظرنا إليهما من حيث صحّة العقل والجسم، والسعادة بالمنزل والأهل والأصحاب أو عدم ذلك، نجد أن القاعدة العمرانية المتقدِّمة، وهي التوسُّط في الأمور تتمشّى مع هذه الأشياء كما تمشَّت مع سابقها:

نرى شخصاً سليم العقل، صحيح الجسم، حميد الصفات، لا يمرُّ عليه زمن حتى نراه شاحب اللون، ضئيل الجثمان، قليل الفهم، مذمومَ الخصال. فيعترينا، عند ذلك، إجفال وحيرة ودهشة، ولم نعلم لذلك سبباً. ولو تأمَّلنا في حالته، واختبرناه صحيحاً، نرى أنَّ إفراطه في شهواته، وتفريطه في جنب الاعتماد على ما أمَرَه به الله- سبحانه- من الترفُّع عن الدنايا، وعدم الانغماس في حمأة الشهوات والشرور، وعدم مراعاة قوانين الصحّة- كلّ ذلك كان سبب شحوبه، والتخليط في عقله، وبُعدِهِ عن الآداب الصحيحة، والمزايا الحميدة. فلو أن مثل هذا الرجل لم يحدْ عن الصراط المستقيم، ولم ينحرف عن جادّة الحقّ، لعاش سعيداً في جسمه وعقله وأخلاقه، وقِسْ على ذلك السعادة بأهله وأسرته وأصدقائه. فإن اتِّباعه للقواعد التي تُعرِّفه كيف يسير بالأهل والأُسرة والأصدقاء والناس أجمعين، تجعله سعيداً ما دام محافظاً عليها، وتُشفيه في حياته، إن حاد عنها.

يشكو كثير من الناس شقاء الحياة وبؤس العيش ولو عملوا بالواجب عليهم نحو الحياة لم يشكوا منها، غير أنَّ ضلالهم عن النهج السويّ، وابتعادهم عمَّا فيه خيرهم وسعادتهم، يسلكان بهم طُرقُاً تُضلّ، ويحملّانهم أثقالاً تزهق الأنفس. فهم، لذلك، يندبون سوء حظَّهم، ويشكون من حياتهم، ولو أَنهم أقلعوا عن الهوى، واتَّبعوا سبل الهدى، فرموا بالشهوات والمنفعة الوهمية جانباً، ولم يعملوا إلّا بما يوافق سنن الله والأسباب التي وضعها لعباده، لعاشوا عيشة راضية. غير أن العادات السافلة، والأخلاق الدنيئة، متى تمكَّنت من المرء تُعمي بصره، وتغشّي بصيرته، فلا تدَعهُ يرى بعقله وقلبه مايكون السببَ الوحيد لنجاته

وخلاصه، ولا تمكِّنه من النظر إلى سنن الله في الأكوان، ولا من مشاهدة أنوار الحياة السعيدة التي ترفعه عن مرتبة الحيوان.

أما الأسباب التي تجعل المرء سعيداً في حياته الجسمية، والعقلية، والمالية، والأهلية، وغيرها، فهي كثيرة. ومتى عمل الإنسان بها وصل إلى ما يتطلَّبه من سعادة الحياة، فيجدر بكلّ امرئٍ كان له ذرّة من العقل أن يتَّبع تلك القواعد، ويعمل بهذه الأسباب، حتى يبلغ ما يريد، ويحصّل ضالَّتهُ المنشودة. وسنتكلَّم على تلك الوسائل والأسباب في المقالات الآتية.

سعادة المرء في نفسه

اختلفت مذاهب الناس، في تفسير هذه السعادة، باختلاف مُيولهم ومشاربهم، فلا تكاد تجد اتّفاقاً في المعنى المراد منها، شأن الناس في تفسير كلّ معقول؛ ذلك لأن العقل لا حدّ له، فهو حرٌّ لا يقبل التقييد، ولا الخضوع لأيَّة سلطة كانت. وأمَّا بعض العقول التي نراها خاضعة متقيّدة بسلاسل الأوهام أو الاستبداد فهي عقول فاسدة، طرأَ عليها من الأحوال الخارجية ماجعلها أسيرة مستكينة لكلّ طارئ. يدلُّك على ذلك أنه متى رفع ذلك الضغط، وجُليت بمجلاة الحقائق، وهتك سيف البرهان الصحيح تلك الغشاوة التي تجلِّلُها فتمنعها عن مشاهدة الحقّ، رجعت إلى أصلها، وتجلَّت لها الحقيقة، فلم تتبع سواها.

قلنا إن العقل حرٌّ يأبى أن يكون أسيراً، ولذلك اختلفت العقول في تفسير المعاني والمعقولات. أمّا الأمور الحسّية فلا تكاد تجد في تفسيرها اختلافاً

كثيراً كما في الأمور المعقولة، لأن ما يقع تحت الحسّ يُدرك بلا تعمُّل، ولا مشقّة شديدة، فهو أسيرُ أو عبد رقّ لا يتمكَّن من مخالفة سيِّده أو الذي أَسَره، ولا يستطيع أن يفرَّ أو يأبق، فإن أَبِق فمن السهل أن يقبض عليه مولاه. وكذلك شأن الأشياء المحسوسة، فإن تعاصت عن الإدراك زمناً، فلابدَّ أن تُطيع، وتكون رَهْنَ الحواس. وليس الشأن كذلك في الأمور المعقولة، لأنها تكون من قبيل الأمور الغيبية التي لا تقع تحت الحواس، فهي كثيراً ما تعتاص حتى على المفكّرين وأصحاب العقول الراجحة والأحلام العظيمة، فيختار كلٌّ منهم سبيلاً يسلكها، ظانّاً أنها الضالّة المنشودة التي توصله إلى ما أجهد عقله، وأتعب فكره لأجله. وتراه يناضل أهل المذهب الآخر، ويناقش أربابه بكلّ ما يستطيع، وما يملكه من القوى العقلية التي أودعها الخالق سبحانه فيه:

فكـــلٌّ يدّعي وصـــلاً بليلى وليلى لا تقـــرُّ لـــهم بذاكا

واختلاف الناس في الأمور المعنوية لا يقتصر على أمر دون آخر، فإنك لا تجد أمراً معقولاً إلّا وتجد بإزائه، من الآراء والمذاهب، ما يدع المرء حائراً لا يلوي على شيء. غير أن العاقل البصير يدرس جميع ما يراه من الآراء درساً صحيحاً، ثم يختار ما يظهر له أنه الحقّ، كلٌّ على حسب استعداده واجتهاده، وإن خالف في ذلك كثيراً من الناس.

على ذلك، درج العلماء، وفي هذه السبيل، مشى الفلاسفة: المتقدِّمون منهم، والمتأخِّرون، كلٌّ له رأي وفكر، فهم لا يكادون يتَّفقون، غير أن كلّاً منهم اختطَّ لنفسه خطّة مشى فيها، وحَسِب نفسه سعيداً باتِّباعها.

ولـمّا كانت السعادة من الأمور المعنوية المعقولة، اختلف الناس فيها

اختلافهم في غيرها من الأمور التي لا دخل للحسّ فيها.

يحسب البعض أن سعادة المرء في نفسه تكون بالتخلّي عن هذا العالم الفاني والتعلّق بالعالم الباقي، مع احتقار كلّ ما في هذا الوجود من اللذات، وما انطوى عليه من المظاهر. فمتى فعل الإنسان ذلك كان سعيداً في نفسه، لا يشعر بما ينزل به من المصائب، ولا بما يلُّم بجسمه من المتاعب، ولا تستميله الحسناء، ولا تُطغيه الصهباء، ولا تستفزّه الأوتار، ولا تغريد الأطيار، أو حفيف الأشجار، كما لا تُحزنه النائبات، ولا تشجيه النادبات ولا الصارخات، فسواءٌ لديه الحياة والممات، فنعيم هذه الحياة وبؤسها لديه سواء، إذ يستوي عنده الفناء والبقاء. وعلى ذلك أكثر الفلاسفة وكثير من رجال الدين والصوفية الحقيقيِّين. فهم يرغبون عن هذا العالم المملوء بالمصائب والزخارف، إلى ذلك العالم الباقي الذي لا ألم فيه ولا شقاء، بل كلّه سعادة وهناء.

وهناك قسم آخر يقابل هذه الطائفة، يزعم أن سعادة المرء في حياته تناقض هذا المبدأ مناقصة تامّة، ويقولون إن ما زعمه هذا القسم من السعادة هو خطأ صراح، وجهل بواح، ولو درَوا ما درَيْنا، وعلموا ما علمنا من الحياة وسعادتها، لعدلوا عن هذا الزعم الفاسد، ورمَوا به جانباً. وتزعم هذه الطائفة من الناس أن السعادة هي أن يتمتَّع الإنسان بما تحت هذا الفلك الدوَّار: من المطعم والمشرب، والتنقُّل من ملهى إلى آخر، والتلذُّذ بكلّ مرأى جميل، ووجه صبيح، والتنعُّم بالملابس الفاخرة، والمركبات الجميلة والجياد المطهَّمة، وتقطيع الأوقات في جمع الليرات، وتضييع الساعات بين الغانيات، والأنس بسحر أحاديثهن،م وسفك دم الحياة عندهن... إلى غير ذلك ممّا يسمّى عند هذه الطائفة بالمدنيّة الجديدة.

وهناك قسم وسط بين الطائفتَيْن، أخذ ما رآه حسَناً عند كلّ طائفة منهما، واحتفظ به، وقال: إن ذلك هو الحياة الحقّ، وهو السعادة التامّة للمرء، في هذه الدنيا.

وقبل أن نبيِّن آراء هذه الطائفة الوسط، يجب علينا أن ننصِّب العقل الصحيح محكِّماً بين القومين الأوَّلَيْن، لنرى أيّهما أقرب إلى الحقّ، ثم نبيِّن رأي القوم الآخرين.

- من تفكَّرَ مليًّاً في مذاهب أهل التجرُّد عن هذا العالم والاحتفاظ بالرغبة عنه، يجد أنهم أنصفوا في كثير من الأمور التي جنحوا إليها، فإن التجرُّد عن هذه اللذّات الوهمية وعدمَ اعتبارها مبدأٌ شريف، غير أن الإفراط في ذلك أمر غير محمود، فإنّ الله- سبحانه- لم يخلق الإنسان في هذه الدنيا إلّا لحكمة سامية، ولم يجعل له هذه الملذّات إلّا لحكمة، كذلك، ولم يأمره بالاعتصام بالأعمال الصالحة التي تؤَهِّله للعالم الباقي إلّا لحكمة أسمى وأرقى. فإن أخذ المرء بطرف، وأهمل الطرف الآخر، فقد أساء التصرُّف فيما خلقه الله له، وما خلقه لأجله.

إن الله لم يخلق الطيِّبات عبثاً. والطيبات معنًى عامّ شامل، يندمج فيه كلُّ ما ترتاح إليه النفوس والأجساد، سواءٌ أكان من الطيبات المعقولة أم كان من الطيّبات المحسوسة. فتمسُّك المرء بقسم الطيبات المعقولة، ورغبته عن القسم الآخر المحسوس، خروج عن سنّة الله التي سنَّها لعباده. حتى إنه- سبحانه- حثَّ الناس على الطيِّبات الجسمية، فقال: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فالإنسان إنّما أوجده الله في هذا

الوجود لينال نصيبه من الدنيا ونصيبه من الآخرة، وهذا النصيب يكون باتِّباع أوامره والانزجار بزواجره التي فهمها العقل، وأيَّدتها الشرائع السماوية.

أما الذين خالفوا مبدأ أهل التجرّد والمعقول، فكانوا مادّيِّين دنيويِّين، لا يهمّهم من الحياة إلّا الأكل والشرب والضّراب، والتنقُّل من روضة حسن إلى أخرى، وجمع المال بأيّ وسيلة كانت، زاعمين أن هذه هي الحياة، وأنها السعادة لا غير، وأنهم إنّما خلقوا لذلك، فقد ضلّوا ضلالاً مبيناً، وحادوا عن سواء السبيل، ولو تفكّروا في عاقبة أمرهم لظهر لهم الأمر، وأدركوا خطأ فكرهم وضلال رأيهم.

أنا لا أذهب بهم إلى المدى البعيد، الذي يعتقد كثير منهم أنه خلطٌ وأوهام، إنما آخذ بهم إلى المدى القريب الذي قد شاهده أكثرهم، وأحسّوا به:

كلٌّ منهم يعلم أن الإفراط في الشهوات، وإعطاء النفس هواها؛ تميل إلى كلّ ما تشاء وتختار، تكون عاقبته الأمراض والخسارة المادّية، والجسدية. وقد حقَّقوا بأنفسهم أن كثرة الأوباء والأمراض التي اعترت المجتمع، إنّما كانت ناشئة عن الإفراط في الملذّات، ومسبَّبة عن الانهماك في الشهوات، والانغماس في حمأة الهوى. بل إنّ ما نراه كلّ يوم ونسمع به من العسر المالي والإفلاس، والقضاء على النفوس البريئة، بل وقضاء المرء على نفسه، إنما هو مسبَّب عن الخروج عن سنّة الله، والرغبة عن اتِّباع الحق إلى الميل نحو الهوى والشهوات.

هذا ما لكلٍّ من الطائفتين، وما عليهما. ويجدر بنا، الآن، أن نتكلَّم على الطائفة الثالثة التي اختارت أن تكون طائفة وسطاً:

– هذه الطائفة أعطت للروح حقّها من النظر في الأكوان، والاعتبار بأحوال الأمم الغابرة والحاضرة، وما ألمَّ بها من الطوارئ، المسبَّبة عن الهوى والإفراط في الشهوات، فكبحت جماح النفس، وردعتها أن تميل كلّ الميل إلى ما تريده وتطلبه، وحدَّدت لها ملذّة خاصّة وهوًى خاصّاً لا تتعدّاهما، وربطتها بأنظمة وقوانين، إن خرقت واحدة منها عاقبتها عقاب التأديب، حتى لا تعود إلى ذلك مرّةً أخرى.

قد أباحت للجسم أن يأخذ حظّه من الملذّات، لكن بشرط أن لا يتجاوزها إلى ما يضرُّ به، بحيث يكون دائماً نشيطاً، في مأمن من العلل والأمراض التي تنهكه، وتجعله عرضةً لكلّ طارئ من الأدواء.

أباحت له الطيّبات من المأكل والمشرب، من غير إسراف ولا تبذير، ولا تضييق ولا تقتير، كما قال تعالى: «وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ».

أباحت له أن يستعمل أعضاءه فيما خُلِقت لأجله، ولكن عند الحاجة، ولأمر هو أسمى ممّا يظنّه أهل الشهوات.

أباحت له أن يلبس ويتنعَّم، لكن بشرط أن لا يصل به ذلك إلى درجة الخنوثة، ويخرجه من دائرة الرجولة، إن كان رجلاً، وعن دائرة الأدب، إن كانت أنثى.

أباحت له الراحة والتنقل في أرض الله الواسعة، والمتنزَّهات الجميلة، لكن بشرط أن لا يعتاد ذلك فيتمكَّن منه، فيوجد فيه الكسل وبغض العمل، والميل إلى الراحة، وحبَّ الدعة والإهمال؛ لأنه متى تمكَّن من نفسه هذا الأمر، كانت حياته كلّها شقاءً وعناء.

هذه آراء الطائفة الثالثة، وهي آراءٌ حميدة، وأفكار سديدة، فقد أخذت من كلّ شيء أحسنه: أخذت من الأولى تطهير النفس وحَمْلها على معالي الأمور، والنظر إلى السعادة الحقيقية، وأخذت من الثانية النظر إلى ما يطلبه هذا الجسد من التغذية والملاذ، ولكنها هذّبتها تهذيباً جعلها صالحة معقولة، فلم تهمل لذّة العقل ولا لذّة الجسد، لأنها رأت أن لكلّ منهما حقّاً يطالب به، ويهيم في أن يتقاضاه، فسلكت الطريق الوسط، لأن حبَّ التناهي والغلّو غلط. وقد جاء في الحديث الشريف: «إن لربِّك عليك حقّاً، وأن لنفسك عليك حقّاً، وإن لأهلك عليك حقّاً، فأعطِ كلّ ذي حقّ حقَّه».

غير أننا لو دقَّقنا في كلا مذهبَي الطائفتَيْن الأولَيَيْن، وأراد مريد أن ينحو منحى إحداهما لا غير، نقول له إن انتهاج منهج الأولى هو خير وأبقى وأسْلَم، في الآخرة والأولى. هذا إن لم نقدر على أن نحمله بالبرهان على سلوك أوسط المذاهب؛ وهو أن يعطي للعقل والروح حقّهما، وللجسد حقَّه كذلك.

.....

وخلاصةالقول: إن سعادة المرء، في نفسه، هي أن يكون مقتصداً فيما يتقاضاه منه العقل والجسد، وإن يرجع في كلّ أمر معقول أو محسوس إلى سنن الله في الأكوان، وما أتى به من الشرائع بواسطة أنبيائه المكرَّمين، فلا يطلق للروح السراح، فتعرض عن الدنيا ألبتّة، ولا يرخي للجسد العنان، فينهمك في الملاذّ التي تعود عليه بالخسران في دنياه، والشقاء في عقباه. فإن من سار في منهج وسط أَمِن العثار، في هذه الدار وتلك الدار. «وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم».

سعادة المرء في صَحْبه

إن صـــــديق الصـــــدق من كان معكْ ومن يضـــــرُّ نفســـــه لينفعَكْ

ومَـــنْ إذا رَيْب الزمـــــان صـــــدَّعكْ شـــَتَّت فيك شـــمله ليجمعكْ[1]

حياة الإنسان، في هذه الدنيا، تَعْتَورها العوامل المختلفة، وتكتنفها الأحوال المتباينة، وهو بين خير ذلك وشرّه، يُطوَى ويُنشَر، فكأنه المعنيّ بقول الشاعر:

كُرَةٌ حـــــذُفت بصـــوالجةٍ فتلقَّـــفها رِجْـــلٌ رِجْـــلُ

ولمّا كان الإنسان على هذا النمط من تأثير عوامل الوجود فيه، احتاج إلى كثير من الوسائل التي يدفع بها ما يطرأ عليه من العوادي، وما ينتابه من المشكلات.

والوسائل، في هذا الباب، كثيرة، منها المهمّ، ومنها ما هو أكثر أهمّيّة – ومن أهمّها اصطفاء الأصدقاء، واصطناع الأوّداء، فإنه بمصافاتهم والاعتماد عليهم ينفِّس كثيراً من كرباته، ويستسهل ما يصعب عليه من شؤون حياته، ويقوم بأعمال جليلة عامّة، وأخرى خاصّة، لا يستطيع أن ينهض بها منفرداً أو معتمداً على غير من يثق بهم، ويركن إليهم.

والناس في اختيار الأصحاب متباينون، شأنهم في كلّ أمر، لأن أكثرهم غافل عن سرّ الصحبة وما تستلزم من النتائج والفوائد، فهم مساقون إليها بسائق الطبيعة، لا بسائق العقل، وشوق الوجدان، لا بشوق الحاجة

(1) البيتان يُنسَبان إلى الإمام عليّ، وإلى الإمام الشافعي (رضي الله عنهما).

والضرورة. وشتّان ما بين هذه السوائق والأشواق!؛ ولهذا ترى الناس لا يبالون باختيار الصاحب، ولا يحفلون بانتقاء الصديق، فهم يصادقون قبل الاختبار، وإن اختاروا فلا يحسنون الاختيار، مع أن للصداقة شروطاً، وللصحبة آداباً، فإن أهمل المرء شرطاً منها كانت عاقبة تلك الصحبة وبالاً عليه.

ألا وإن أهمّ شرط يجب على المتصادقين مراعاته، هو أن يعلما علم اليقين أن روح الصحبة هي أن يكون كلّ واحد منهما عوناً لصديقه في الضرّاء، وأنيسه في السرّاء، وأن يموت لموته، ويحيا لحياته، وأن يألم لألمه، ويهشّ لفرحه، وأن يساعده عند النوازل، ويأخذ بيده عند العثرات، وأن يدفع عنه السوء بماله وجاهه وحياته. وتلك هي الصحبة الحقّ، وإلّا فهي رياء وخداع، ونفاق وتزلُّف. وليس ذلك من دأب أرباب المروءة، ولا من عادة الأحرار واصحاب الشرف.

إن كثيراً ممَّن يدَّعون الصداقة يسوقهم إليها طمع في جاه المصادق أو ماله، حتى إذا نفدت أمواله، أو حَجَب عنهم نَداه، أو سقط من مركزه، الذي كانوا يستظلّون بظلّه، ولَّوْا عنه مدبرين، كأن لم يكونوا يعرفونه، فهم- إذن- أصدقاء ماله وجاهه، لا أصحاب أخلاقه أو علمه أو فضائله. ومن كان على هذه الشاكلة فهو عدوٌّ في صورة صديق، وإنّما حمله على الصداقة والإخاء ما كان يأمله من المنفعة.

إذا العدوّ أحـــــاجته الإخـــا عِللٌ عادت عـــداوته عند انقضا العللِ

إنَّ وجود الأصدقاء ضروريّ للإنسان، غير أنَّ اختيارهم أشدُّ ضرورة له، وإلّا كانوا أضرّ عليه ممّا لو عاش منفرداً. فإن كان في اتِّخاذ الصحب

منفعة للمرء، ففي عدم انتقائه إيّاهم ضرر كبير. ودرءُ المفاسد مقدَّم على جلب المصالح. فأَوْلى له، حينئذ، أن يعيش فذّاً مستوحشاً، من أن تتوالى عليه النوائب ممن لا يقدرون الصداقة حقَّ قدرها.

فوجب- إذن- على العاقل أن لا يستخلص لنفسه إلّا المجرّبين، ولا يركن إلّا إلى المخلصين، الذين لا يبيعونه عند الشدّة بالثمن البخس، وأن يحذر كلّ الحذر من أهل الرياء وأرباب الزلفى، الذين يعرفونه عند الرخاء، وينكرونه عند الرجاء، وحلول الضرّاء. وذلك لا يكون إلّا بتجربتهم قبل الاستخلاص، واختيارهم قبل عقد أواصر الصحبة:

إن الرجال صناديق مقفَّلةْ وما مفاتيحها غير التجاريبِ

ومن حسْن الاختيار أن يقلِّل من الأصحاب، ويضيّق شرط الانخراط في سلك صداقته، فإن التقليل من الأصحاب، والاقتصاد على الاختيار منهم أمر ضروري، كما قال الشاعر:

عدوّك من صـــديقك مســـتفادٌ فلا تســـتكثرنَّ من الصـــحاب

فـــإن الداء أكـــثر ما تـــراه يكون من الطعـــام أو الشـــراب

فمتى سار المرء في هذه الخطّة المباركة، واصطفى لنفسه من الأصدقاء من يركن إليه ويعتمد عليه، كان سعيداً في صحبه، وعاش عيشة راضية، ونال هناءً وسعادة.

ومتى ظفر بمثل من قَدَّمنا من الأصحاب فليعضّ عليهم بالنواجذ، وليثبت على صحبتهم، ولا يقطع حبال مودَّتهم بالجفاء، ولا يكدِّر ماء

ودادهم بالأذى، وليكن حسن الخلق معهم، رحيماً بهم؛ فإنَّ الألفة نتيجة الأخلاق وفضيلة من فضائلها. ولا تتوطَّد أركان المحبّة والصداقة إلّا إذا استحكمت حلقات الخلُق الحسَن بين المتحابّين. كما أن التفرُّق بين الأخلَّاء نتيجة من نتائج الخلق السيِّئ، ورذيلة من رذائله.

واعلم أن الصداقة لا تدوم إلّا إذا كانت خالية من كلّ شائبة، ومنزَّهة عن كلّ غرض مادّيّ. لأنها معنًى من المعاني التي لا تعلُّق لها بالمادة. فمتى خُلطت بها فسد جوهرها، وكدر صفاؤُه. والحبّ الذي يكون كما قدَّمنا هو الذي يسمونه الحبَّ لله، ويمتدحونه أشدَّ الامتداح. وقد ورد في الحديث الشريف: «سبعة يظلُّهم الله في ظلّه يوم لا ظَلّ إلّا ظلّه: إمام عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، (عزّ وجلّ)، ورجل قلبه معلَّق بالمسجد؛ إذا خرج منه يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله؛ اجتمعا على ذلك وتفرَّقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وجاء في حديث آخر: «إن رجلاً زار أخاً له في الله، فأرصد الله له مَلَكاً، فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أن أزور أخي فلاناً. فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا. قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا. قال: فبنعمة له عندك؟ قال: لا. قال: فيمَ؟ قال: أحبُّه لله. قال فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبّك لحبّك إيّاه، وقد أوجب لك الجنّة».

إن الخليل إذا كان كمن ذُكِر فهو الخليل الذي وجبت محبَّته، وحقَّت كرامته، وجدر بالمرء أن يتمسَّك بأذياله. وهذا هو الخليل الصالح الذي أراده صاحب الأثر بقوله: «من أراد الله به خيراً، رزقه خليلاً صالحاً؛ إن نسي ذكَّره، وإن ذكَّر إعانه» وبقوله: «من أراد الله به خيراً، رزقه خليلاً

صالحاً؛ إن نسي ذكَّره وإن ذكر أعانه» وبقوله: «مَثَلُ الأخوَيْن إذا التقيا مثلُ اليدَيْن؛ تغسل إحداهما الأخرى» والأخوَّة على هذه الصورة هي داعية الألفة وبريد الاتّفاق؛ إذ لا أخوّة بلا ألفة، ولا صداقة بغير اتّفاق. لهذا ورد كثير من الآثار والأخبار في الترغيب بالألفة والحضّ على تحسين الأخلاق التي هي مقدِّمة لها. وقد جاء في الحديث الشريف: «إنَّ أقربكم مني مجلساً، يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطَّؤون أكنافاً، الذين يألّفون ويؤلفون».

ومن دواعي الألفة أن يكون بين الصديقَيْن مشاكلة في الطباع، ومناسبة في الأخلاق، لأن شبيه الشيء منجذب إليه؛ ولذا ورد في الحديث: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» فالتناكر نتيجة التناسب، والائتلاف والاختلاف من فواعل القلوب. والأرواح البشرية، التي هي في النفوس الناطقة، مجبولة على ضرائب مختلفة وطباع متباينة. فكلُّ ما تشاكل منها في الصفات والأخلاق تعارف واتَّفَق، وكلّ ما تباين وتناكر منها اختلف وتفرَّق. فالمراد بالتعارف هو ما بين النفوس من التناسب والتشاكل، والمراد بالتناكر ما بينها من التنافر والتباين. وكلّ ذلك بحسب ما جُبلت عليه من الأخلاق، وما اكتسبته من الصفات.

لذلك وجب اختيار الصديق قبل الركون إليه، وإلّا آل أمرهما - مهما طال- إلى الشقاق وقطع أواصر الصداقة. قال الشاعر:

وقائلٍ: كـــــيف تفارقـــــتما؟ فقـــلت قـــــولاً فيه إنصافُ:

لم يكُ من شكـــــلي ففـــــارقته والنـــــاس أشـــــكال وألّاف

ومَنْ نظرَ إلى ما يقع بين الأصدقاء من الشقاق، وما تنتجه تلك الصداقة من النفاق، يحكم أن سبب ذلك إنَّما لأنهم لم يراعوا حقَّ الصحبة، ولم يبنوا صداقتهم على أساس مكين، أو أنهم اصطحبوا على غير ما يفيد، وتعاهدوا على أمور ليست من المروءة في شيء. وأكثر من نرى من الأصدقاء ليسوا إلّا ذؤباناً ووحوشاً لبست لباس الصديق. وكثير منهم إنّما اتَّفقوا على المنكرات، وسافل الأخلاق والعادات، حتى إذا انقضى ما أرادوا، رجعوا متباينين، وانقلبوا خاسرين.

.....

وصفوة القول: إن من أراد أن يكون سعيداً في صحبة فعليه أن يختار منهم من اجتمعت فيه أمور خمسة؛ أساسها مشاكلته إيّاه، لأن الجنس ميّال إلى الجنس، وأن يكون ذا عقل موفور؛ فإنّ الأحمق لا يمكن أن تدوم صحبته، وأن يكون له وجدان يحمله على فعل الخير، ويربأ به عن موارد الشرّ، وأن يكون محمود الأخلاق، مرضيّ الأفعال، مؤثِراً للخير آمراً به، كارهاً للشرّ ناهياً عنه، فإن مودّة الشرير تُكسِب الأعداء، وتفسد الأخلاق. وأن يكون في كلّ من المتصادقين ميل إلى الآخر، ورغبة صادقة في المؤاخاة، فإنّ بذلك كلّه دوام الصحبة، وإحكام روابط الأُلفة.

ومتى وجد المرء صديقاً استكمل شروط الصداقة، فلا ينبغي أن ينقّب عن زلّاته، ويبحث عن هفواته، فإن هذا من دواعي حَلّ أواصر المودّة. بل يجب عليه أن يتجاوز عن خطئه، وأن يسبل المعذرة على ما يفرِّط منه، لأنه إنسان، والإنسان بطبيعته يخطئ ويصيب، وأيّ امريء ليس فيه عيب؟ فإن حاول أحد أن يحمل الناس على التجرُّد من كلّ عيب، فقد ركب مركباً

خشناً، وطلب مرتقىً وعراً؛ لأنه، بتلك المحاولة، يريد أن يخرجهم من الطور الإنساني إلى الطور الملكوتي، وهذا ما لا يقدر عليه المحاول، ومن رام صديقاً لا عيب فيه، ولا تصدر عنه هفوة، فقد طلب العزلة والحياة منفرداً. قال الشاعر:

تريد مهـــذَّباً لا عـــيـب فـــيه وهل عـــود يفـــوح بلا دخان؟

وقال النابغة الذبياني:

ولســـت بمســـتبقٍ أخاً لا تُلمُّهُ على شعَثٍ؛ أيُّ الرجال المهذَّبُ؟

وقال بشار بن برد- وقد أجاد-:

إذا كـــنت في كلّ الأمور معـــاتباً صديقك لم تُلـــفِ الذي لا تعاتبهْ

وإن أنت لم تشرب مراراً على الفذى ظمئت؛ وأيّ الناس تصفو مشاربهْ؟

ومن ذا الذي تُرضـي سجـــاياه كلُّها كـــفى المـــرءَ نبلاً أن تُعـــدّ معايبهْ

فعِـشْ واحـــداً أو صلْ أخـــاك فإنهُ مقـــارفُ ذنـــبٍ مـــرةً ومجـــانبهْ

ومَنْ نحا هذا المنحى من المجاوزة عن هفوات الإخوان والإغضاء عن سيِّئاتهم فقد أراح نفسه من عناء العتاب، وأنزل عن عاتقه أوقاراً من الهمّ تنوء بها الراسيات. نعم أن وفرت جرائمهم، وعظمت إساءتهم، حتى غلبت سيّئاتهم على حسناتهم، فليسوا، حينئذٍ، بالإخوان الألى، ينبغي الثبات على ولائهم ومصادقتهم. بل يجب نبذهم بعد تنبيههم وعدم ارعوائهم، وأولئك هم من اللئام الذين قال فيهم المتنبي:

إذا أنت أكـــرمت الكريم ملـــكته وإنْ أنتَ أكـــرمت اللـــئيم تمـــرَّدا

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرٌّ كوضْعِ السيف في موضع الندى

أقوال في هذا الباب

قال بعض الأدباء: «لا تصحبْ من الناس إلّا من يكتم سرَّك، ويستر عيبك، وينشر حَسَنك، ويطوي سيِّئتك. فإن لم تجده فلا تصحب إلّا نفسك». وقال بعضهم: «الناس أربعة: فواحد حلوٌ كلّه فلا يُشبع منه، وآخرُ مرٌّ كلُّهُ فلا يؤُكل منه، وآخر فيه حموضة، فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة، فقط». وقال جعفر الصادق- رضي الله عنه-: «لا تصحب خمسة: الكّذابَ فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرّب منك البعيد، ويبعد منك القريب، والأحمقَ فإنك لست منه على شيء؛ يريد أن ينفعك فيضرّك، والبخيلَ فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبانَ فإن يُسلِّمك ويفرّ عند الشدّة، والفاسَق، فإنه يبيعك بأكلة أو أقلّ منها، فقيل: وما أقلّ منها؟ قال: الطمع فيها، ثم لا ينالها».

قال الجنيد: «لأن يصحبني فاسق حسَنُ الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني قارئ سيِّئ الخلق»، والمراد بالقارئ الفقيه العالِم.

وقال سهل بن عبدالله التستري: «اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلين، والقرّاء المداهنين، والمتصوِّفين الجاهلين».

وقال المأمون: «إن الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه،

والآخر مثله مثل الدواء؛ يُحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء؛ لا يحتاج إليه في وقت، ولكنّ العبد قد يبتلى به، وهو لا أنس فيه ولا نفع».

وقال المؤَمّل الشاعر:

الناس شــتّى، إذا ما أنت ذقــتهم لا يستوون كما لا يســتوي الشجرُ

هذا له ثمــر حــــلوٌ مــذاقــته وذاك لــيس له ظــلٌّ ولا ثــمرُ

وقال أبوذرّ- رضي الله عنه-: «الوحدة خيرٌ من جليس السوء، والجليس الصالح خيرٌ من الوحدة».

وقال الشاعر:

إني لآمنُ من عــــدوٍّ عــاقلٍ وأخــافُ خــــلًّا يعــتريه جنون

فالعقل فنٌّ واحــد وطــــريقهُ أدري، فأرصــدُ، والجــنون فنون

وقال أبوالفضل علقمة العطاردي لابنه موصِّياً إيّاه، حين حضرته الوفاة، وقد جمع في قوله هذا جميع حقوق الصحبة: «يا بنيَّ، إذا عرضت لك حاجة إلى صحبة الرجال فاصحب مَنْ إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤُنة مانك. اصحب مَنْ إذا مددتَ يدك بخيرٍ مدّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى سيِّئة سَدَّها. اصحب مَنْ إذا سألته أعطاك، وإن سكتَّ ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك. اصحب مَنْ إذا قلت صدّق قولك، وإن حاولتما أمراً أمَّرك، وإن تنازعتما آثرك».

وقال عدي بن زيد:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

وقال آخر:

إذا ما كـــنتَ متَّـخـــذاً خـــليلاً فلا تثـــقَـنْ بكلِّ أخـــــي إخـاءِ

فإن خُـــــيِّرت بينـهم فالْـــصَقْ بأهـــــل العقـــل منهـم والحياءِ

فإن العقـــل ليـــــس له، إذا ما تفاضـــلت الفضـــائل، من كفاء

وقال الماورديّ: «الإخوان أربعة: منهم من يُعين ويستعين. ومنهم من لا يُعين ولا يستعين. ومنهم من يستعين ولا يعين. ومنهم من يعين ولا يستعين. فأمّا المعين والمستعين، فهو معاوض منصف يؤَدّي ما عليه ويستوفي ما له، فهو كالمقرِض، يسعف عند الحاجة ويسترّد عند الاستغناء، وهو مشكور في معونته، ومعذور في استعانته، فهذا أعدل الإخوان. وأمّا من لا يعين ولا يستعين، فهو متروك، قد منع خيره وقمع شرّه، فهو لا صديق يُرجى ولا عدوٌّ يُخشى. وأمّا مَنْ يستعين ولا يعين، فهو لئيم كَلٌّ، ومُعان مستذلّ، قد قطع عنه الرغبة، وبسط فيه الرهبة، فلا خيره يُرجى ولا شرّه يؤمن، وحسبك مهانة من رجل مستثقل عند إقلاله، ويستقلُّ عن استقلاله، فليس لمثله في الإخاء حظٌّ، ولا في الوداد نصيب وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع، مشكور الصنع، وقد حاز فضيلتَي الابتداء، والاكتفاء، فلا يرى ثقيلاً في نائبة، ولا يقعد عن نهضة في معونة، فهذا أشرف الإخوان نفساً، وأكرمهم طبعاً، فينبغي لمن أوجد له الزمان مثله- وقَلَّ أن يكون له مثل، لأنه البرُّ الكريم، والدرُّ اليتيم- أن

يثني عليه خنصره، ويعضَّ عليه ناجذه، ويكون أشدَّ ضنّاً منه بنفائس أمواله، وسَنيّ ذخائره. لأن نفع الإخوان عامّ ونفع المال خاصّ. ومن كان أعمّ نفعاً فهو بالادِّخار أحقّ.

.....

هذا غيض من فيض مما ورد في الصحبة وآدابها. وما شرحناه وَشَلٌ من غمر، لا يُدرَك له قعر. وفيه كفاية لمَنْ عمل به ليكون سعيداً في صحبه.

دلائل التوحيد

ظهرت الأديان، وظهرت بظهورها الأحزاب، فمِن عاضدٍ لها، ومن عامل على خرابها، شأن كلّ جديد.

الأديان، منها السماوية، ومنها الوضعية. فالسماوية أصل الخير في الدارَيْن وسعادة من اتَّبَعها في الحياتَيْن. وقد كانت معارضتها والقيام ضدَّها من الذين طبع الله على قلوبهم، فهم لا يفقهون كثيراً. فلهذا تصدَّى أقوام من أهل كلّ دين لدفع الشُّبَهِ التي تورد عليه من الملحدين. وكانت تلك المدافعات على حسن الزمان ومعلومات أهل الوقت.

وقد أصاب الدينَ الإسلامي ما أصاب غيره من الأديان. فقد وجد له في كلّ زمان نفرٌ يوردون الشبه على قواعده وعقائده، خصوصاً بعد أن تُرجمت كتب الحكمة من اليونانية إلى العربيّة، وتلقّى المسلمون العلوم الفلسفية، وبرعوا فيها. وقد درس أفاضل علماء الدين تلك العلوم درساً متقناً فأجادوها، حتى عُدُّوا من المجتهدين فيها، ومن أعاظم رجالها. وذلك لرَدِّ ما يورده بعض الملحدين على عقائد الدين التي جاء بها الكتاب. وقد ألّفوا في دفع الشبهة، على طريقة الفلاسفة، كتباً كثيرة في كلّ زمان. أمّا في عصرنا هذا؛ العصر الذي هُذّبت فيه الفلسفة، وأسندت قواعدها على

البراهين المحسوسة، وتغَيَّر كثير ممّا كان قاعدة مسلَّمة على المتقدِّمين من الفلاسفة، فقد أحتاج الأمر إلى تآليف جديدة على طريقة فلاسفة العصر للردّ على الملاحدة الذين كثروا كثرة الجراد، خصوصاً في البلاد الأوروبية. وقد سرى لبلادنا شيءٌ من ذلك فعمَّ كثيراً من أصحاب المِلل المختلفة، خصوصاً بعض الشبّان الذين ينكرون كثيراً من أصول الأديان المسلَّم بها: كوجود الإله والنبوّات، لمجرَّد أنهم سمعوا أن الفيلسوف الإنكليزي أو الفرنساوي- مثلاً- قال بإنكارها. ولو طالبتهم بأداتهم على ذلك لَوَجَموا ساكتين، ولم ينبسوا ببنت شفة؛ وما ذلك إلّا من التقليد الأعمى الذي عمَّ البلاد، وأضرَّ بالعباد.

على أن كثيراً من هؤلاء الفلاسفة رجعوا عن كثير من معتقداتهم، وظهر لهم، بالأدلّة الساطعة، خطأ ما كانوا يعتقدون من إنكار الصانع وعظمته، كما تشهد بذلك مؤلَّفاتهم.

وممَّن تصدَّى، في هذا العصر، لدفع تلك الشبه بالأدلّة العقلية، والشواهد الفلسفية، والطبيعية، السيِّد جمال الدين الأفغاني، وشيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، والسيِّد محمد رشيد رضا صاحب مجلّة «المنار»، وغيرهم من أفاضل علماء المسلمين. وقد حذا حذو هؤلاء الأفاضل الأستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي المشهور بعلمه وفضله وغيرته، فألَّف كتاباً من أحسن المؤلَّفات في هذه الموضوعات، وهو ذو العنوان المفتَتَح به صدر هذا المقال. وجرى فيه مجرى الباحث الناقد، والفيلسوف الخبير، وأبان، بأوضح مقال، أن الدين لا ينافي العقل، وأنهما متحالفان لا متخالفان. وأيَّد بالأدلّة العقلية الدامغة، والبراهين العلمية، والفنّيّة،

والطبيعية، العصرية، إثبات الصانع- سبحانه- وصحّة النبوَّات، وغير ذلك من الأصول والعقائد التي جاءت لأجلها الأنبياء. فالكتاب من خير الكتب التي أُخرِجت للناس في هذا العصر. جزى الله مؤَلِّفه خير الجزاء.

المال والشرف

الناس، في هذا العالم أقسام شتّى، وأنواع متباينة، مختلفة أطوارهم، غير متَّفقة آراؤهم. وحَمْل الناس على السير في مذهب واحد، وإجبارهم على الاتّفاق في رأي ما ضَرْبٌ من المحال.

فمن الناس من يميل إلى أمرٍ فيه رفعة قدره وخيره الحقيقيّ، ومنهم من يُقدم على اقتراف شيء فيه ربحٌ مادي، غير أنه يسقطه من الهيئة الاجتماعية، ويُلبسه ثوب الخزي والعار، وهو لا ينظر إلى الشرف وعزّة النفس، إن كان في ضدّهما كسب المال، ولو ممّا هبَّ ودبَّ. فلو أردت أن تحمل مثل هذا الرجل على ترك هذه الخطّة، وتجبره على سلوك الطريقة المثلى - ولو أضرَّت ببعض ربحه المادي- لنظر إليك شزراً، و- ربَّما- رماك بما يغيظك من الكلمات. فأجدِرْ بمثل هذا الإنسان أن يُنبَذ ظهرياً، وإن يسقط من الجامعة الإنسانية؛ إذ الإنسان بأخلاقه الفاضلة، وصفاته الكاملة، لا بأمواله الوافرة، ووجاهته العظيمة.

على ذلك، درج الرجال العظام، وفي تلك السبيل القويمة، مشى العقلاء المفكّرون؛ لهذا نرى أسماءهم تُذكَر والعظمة والإجلال حليفان لها. أمّا من خالف هذا المبدأ الشريف، فحدّث- ولا حرج- عمّا يناله من السخط

العامّ والاستهزاء به متى ذُكر أو خَطر في بال أحد.

أيهّا البائعُ شرفَه بالمال، لو كان لك عقل يفكّر، أو وجدان يتألَّم، لعدلت عن هذه الخطّة، وتنكَّبت تلك الطريق.

إنّا نعلم كثيراً لديهم من الأموال ما لا يعلم عدده إلّا الله، ولكن لا نرى في أنفسنا ميلاً إليهم، بل هم محتقَرون في أعيننا، مرذولون في كلّ نادٍ وُجِدوا فيه. وما ذلك إلّا لأنهم يبذلون الجهد لاكتساب المال من كلّ مصدر، ولو أضرَّ ذلك بدولتهم وأمَّتهم، لأنهم لا يعملون إلّا ما يفيدهم، ليس إلّا. ومع ذلك فلو طلبت من أحدهم إعانة تفيد الوطن علا وجهه الاحمرار أو الاصفرار أو الاخضرار، إلى غير ذلك من الألوان، ثم هو لا يعطيك. وإن أحرجته وأخجلته، فلا يقوم للبذل إلّا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المسّ، وإن مدَّ يده للإعطاء فيمدُّها مرتجفة كأنها شَلّاء.

على أنه إذا وجد سبيلاً لإنفاقها في غير وجهها المشروع، تراه أسرع إلى بذلها من الماء في منحدر، أو السهم إلى هدف، يتهلَّل بذلك فرِحاً مسروراً.

من كان على تلك الشاكلة فهو من أضاع الشرف للسعي وراء اللذّة الوهمية والمنفعة الخاصّة. وما أجدر من كان كذلك أن لا يكون له حظٌّ من الكرامة، ولا نصيب من الإعظام!.

الاستقلال الشخصي أو الاعتماد على النفس

ما من أمّة طرحت عنها رداء الخمول، ونزعت جلباب الضَّعة والضعف،

إلّا كان استقلال الفكر في أفرادها قائدها إلى ذلك، ورائدها إلى ما هنالك. وما من أمّة تقهقرت بعد التقدُّم، وخملت بعد التنبُّه، إلّا كان التواكل مدعاة خمولها، والاعتماد على الغير وعدم الاستقلال سبب تقهقرها.

ذلك لأن المرء، باعتماده على غيره، يضعف عزمه، وتنحلّ إرادته، ويفتر إقدامه على الأعمال، اتِّكالاً على أن في الميدان من يقوم بهذا العمل، فلا حاجة إلى إرهاق نفسه وإتعاب جسمه. وهكذا، يترك المعتمد عليهم الأعمال والسعي اعتماداً على غيرهم، وهلُمَّ جرًّا؛ وبذلك يفسد النظام، وتنحلُّ عُرى المدنية، ويستولي الكسل واليأس، إلى أن تصبح الأمّة في مؤخِّرة الأمم، فإما أن تُمحَق وتُمحى، وإمّا أن تستولي عليها أمّة أخرى، فتندغم فيها، وتصير جزءاً منها.

أمّا إن اعتمد كلّ فرد من أفراد الأمّة على نفسه فإنه يقوى عزمه، وتشتدّ إرادته، فيقدم على الأعمال غير هيّاب ولا وَجِل، ولا وغير مُبالٍ بإرهاق نفس أو إتعاب جسم، ومتى سرى هذا الفكر في نفوس أفراد الأمّة نهضت بعد القعود، وترقَّت بعد التدنّي، وتنبَّهت بعد الغفلة.

فأوَّل ما يجب على المصلحين عمله هو السعي وراء بثّ هذا الروح الطاهر في الناس حتى تتربّى فيهم ملكة الاستقلال والاعتماد على النفس، وبسوى ذلك لا يمكن النهوض بالأمّة؛ إذ إن لم يكن فيها استعداد يدفعها أن ترقّي نفسها بنفسها، دون مساعدة خارجة عنها، فلا سبيل إلى ترقيتها والأخذ بيدها، وإن ترقَّت ونهضت فلا تلبث أن تسقط وتتقهقر، متى حال دونها ودون المساعدة الخارجة حائل:

لا تنتهي الأنفس عن غيِّها مالم يكن منها لها زاجر

وهذا هو الشأن في الحكومات، كما هو في الأمم، فإن الحكومة التي ليس لها استعداد لدفع الطوارئ، فإنها تكون، بحكم الطبيعة، منقادة لحكومة أعظم منها قوّةً وآثاراً في الأرض، تأتمر بأمرها وتنتهي بنهيها، وتفتح لها الأبواب لتَلِجَ في أراضيها، وتستثمرها، وتستبدّ بمرافقها ومصالحها، في مقابل حمايتها ودفع الكوارث عنها، غير أن هذه الحماية لا تبقى أبد الدهر، بل لابدَّ أنها تنحلُّ يوماً ما، فتؤُول تلك الحكومة المتَّكلة على غيرها عرضةً للحوادث، وهدفاً لسهام الطامعين.

ليس معنى الاستقلال الفكري أو الاعتماد على النفس أن يترك الإنسان مشورة غيره ممَّن يعتقد فيهم العقل والعلم والاختبار. كلا، إنما هو أن لا يترك العمل والتفكُّر اتِّكالاً على أن غيره يعمل أو يفكِّر، بل ليفتكر ويعمل هو، أيضاً، فإن كان فكره وعمله خيراً من فكر غيره وعمله، فَبِها، ونعمَّتْ، وإلّا إنقاد لفكر سواه وعمل به، وبذلك يكون مستقلَّ الفكر أيضاً، إذ لم يجبره أحد على اتِّباع غيره أو عدم اتِّباعه، بل إن فكره هو الذي أرشده إلى أن ما جاء به فلان من الأعمال، أو أبداه من الأفكار، هو حقّ.

كثيرُ من الناس يهملون شؤونهم الخاصّة، كتعليم أبنائهم وتشييد المدارس، والمعامل وغير ذلك؛ اعتماداً على الحكومة. ولو عقلوا لأقلعوا عن هذا الفكر، لأن الأمّة التي تعتمد على الحكومة، في مثل ذلك، هي أمّة متقهقرة ساقطة، والأمم الحيّة الراقية هي التي تشيِّد المدارس وتنشئُ المعامل والمصانع غير متَّكلة على حكومة، ولا معتمدة على حاكم.

إن الحكومة هي تابعة للأمم، رقيّاً وانحطاطاً؛ فمتى كانت الأمّة منحطّة انحطَّت حكومتها بحكم القسر، ومتى كانت الأمّة راقية ترقَّت معها

بحكم الضرورة، لأن الحكومة هي صورة أفراد الشعب المحكوم ومثاله وخلاصته؛ إذ هي منه وله، على كلّ حال. فإن اتَّفق أن الحكومة كانت أرقى من الأمّة فلا تلبث أن تنحطّ وتتقهقر إليه، والعكس بالعكس: «كما تكونون يُوَلَّى عليكم»، فإن كانت الأمّة مستقيمة ميّالة إلى العدل والحرّيّة والفضائل حُكمت بحكومة لا عِوَج فيها ولا استبداد ولا جور ولا رذيلة، وإن كانت الأمّة جاهلة فاجرة، لا يريد أفرادها العدل ولا يخضعون للحقّ، حكمت بحكومة جاهلة فاجرة ظالمة مستبدّة عوجاء، لا تميل إلى الحقّ، ولا تخضع للعدل. والخلاصة أن أخلاق الأمّة، إن خيراً وإن شراً، تنطبع في مرآة وجدان الحكومة.

فإن أرادت أمّة أن يكون لها حكومة عادلة ودولة قويّة، فعليها بإصلاح أخلاق أفرادها، وتعويدهم الفضيلة والحرّيّة الصحيحة وحبّ العلم وغير ذلك من الصفات والمَلَكات العادلة. ومتى تمَّ لها ذلك، وصار الشعب عادلاً عالماً متربِّياً أضحت الحكومة تابعة له، رقيّاً وعدلاً. ومتى أضحت الحكومة كذلك انقطعت أسباب الرشوة والحكم بغير الحقّ. وكلّ هذه الأسباب المتقدِّمة تدعو الشعب لمساعدة الحكومة، مادّيّاً وأدبيّاً. ومتى استغنت الحكومة، وكانت متنزِّهة عن الرذائل- كما قدَّمنا- تسعى لجمع شتاتها، وإصلاح فاسدها، وتقوية جيوشها وأساطيلها، تصبح دولة مرهوبة السطوة، مرعيّة الجانب.

.....

الاستقلال قسمان: فكريّ، وعمليّ. وقد كانت الأمّة محرومة من كليهما بما أفسده الظالمون من نفوسها؛ لهذا لم نكن سمع لها صوتاً في عالم

الحياة، يُعرِب عمّا يخالج فؤادها من الآراء والأفكار التي تدلّ على الرقيّ الفكري، ولم نكن نرى لها عملاً في ميدان الجهاد الحيوي يرفع بها إلى ذروة الاعتبار، ويجعلها في صفوف الأمم الحيّة الراقية، بل كان فكرها وعملها تابعَيْن لكلّ ناعق ومقتفِيَيْن أثر كلّ سائر، وما ذلك إلّا لضعف الإرادة وخمول العقل وفتور الهمّة. وإنا لنرجو، بعد أن نالت الأمّة حرِّيَّتها، أن تنزع عنها رداء الخمول، وتربأ بنفسها أن تكون أمّة تابعة، لا إرادة لها ولا فكر.

نعم، لا ننكر أننا، الآن، لم نزل محتاجين إلى غيرنا في كثير من الآراء والأعمال، غير أننا، لو ثابرنا على تذليل الصعاب وإزالة العقبات، فلا نلبث أن نصل إلى الغاية المقصودة بحَوْل الله وقوّته. فإن الأمم الغربية التي نقلِّدها ونعتمد عليها في العلم والعمل كانت أحطّ منا، الآن، علماً وعملاً، بل لم يكن لديها ما يصحّ أن يُسَمّى علماً وعملاً، لكنها، بعد اختلاطها بالأمم المشرقية والأمّة الأندلسية، جدَّت واجتهدت، حتى بلغت ما هي عليه الآن من الترقّي الباهر في العلم والعمل:

وليس بدعاً إن نكـــن، ترتقـي لمجـــدنا من هـــوَّة المصـــرع
فالشمس بعد الكســف تبدو لنا وتنجـــلي في رائـــع المطـــلع
والجدّ يدني شـــاسـعات المنى واليـأس يُقصـي داني المنجع[1]

.....

(1) الأبيات لمؤلِّف الكتاب، من إحدى «القصائد الشرقيات».

يجب أن نربّي ملَكة الاستقلال في النشء، منذ الصغر، حتى إذا شبَّ ولم يكن له من يَعوله أو يعتمد عليه، كان اعتماده على نفسه رأس مال عظيم، يستعين به على مكافحة أهوال هذه الحياة، فإن مَنْ حبُّ الاستقلال ملَكةً فيه تهون عليه الصعاب، وتُذَلُّ لديه العِقاب، ويبذل في سبيل الحياة كلَّ ما في وسعه، ويفرغ مجهوده دون الوصول إلى غايته والحصول على بغيته.

أمّا مَنْ ينشأ كما ينشأ أكثر الشرقيين، عالةً على آبائهم، لا يعرفون للحياة الحقيقية معنى، ولا يدرون لحقوق الوطنيّة كنهاً، فهم يعيشون كما تعيش البهائم السائمة، لأن لذّة الحياة بالعمل، ولا عمل- حقّاً- إلّا العمل الناشئ، عن الاجتهاد والاعتماد على النفس والاستقلال في الفكر والعمل.

متى نشأ الولد فليعوِّده أبواه، أو من له الولاية عليه عدمَ الاتِّكال على أحد في كلّ عمل، حتى إذا بلغ الحياة العملية فليترَك وشأنه، يدبِّر لنفسه عملاً يستعين به على الحياة حياة طيِّبة، غير أننا على غير هذا المبدأ، فإن الوالد لا يترك ولده يعمل ويفتكر إلّا بعد أن يبلغ من الكِبَر عتيّاً، فينشأ الولد خاملاً كسلاناً معتمداً على أبيه أو على ما يتركه له من المال والعقار؛ لذلك تراه لا يمكنه أن يأتي عملاً أو يجيد في رأي، وهناك المستقبل التعس وحياة الشقاء. والحال غير هذا في النشء الغربي، فإنه يُعَوَّد، منذ نعومة أظفاره، هذا المبدأ الشريف الراقي؛ مبدأ الاستقلال في الفكر والعمل، حتى إذا بلغ مبلغ الشباب تخلّى عنه أبواه وقذفا به في معترك الحياة وميدان الجهاد، وهناك المستقبل الحسن والغاية الجيِّدة والحياة الطيبة والعيشة الراضية:

وإنما رجـــل الدنيا وواحـــدها من لا يعوِّل في الدنيا على رَجُلِ

إذا لم تكن أفراد الأمّة معتمدة على نفسها متَّكلة على ما لديها من الأخلاق والعلم والعمل، فلا حرّيّة لديها، ولا يُرجى لها رقيّ، مهما كانت قوانينها عادلة ومشتملة على ما فيه خير الأمّة والوطن؛ ذلك لأن القوانين والأنظمة إذا لم تُلفِ استعداداً في النفوس، ورجالاً يعملون بها وينفِّذونها، فإنما هي حبر على ورق. ومَثَلها، حينئذ، كمَثَل ما سُقِيت به الصخور؛ فلا تنبت شيئاً، ويكون الماء قد ذهب هدراً وضياعاً.

.....

القوانين لا تجعل الناس أحراراً، مهما كانت فاضلة، غير أن الناس قد اعتادوا أن يعتقدوا خيرهم ونجاحهم مسبَّبان عن الأنظمة التي تُحكَم بها بلادهم، وهم مخطئون، في هذا الاعتقاد، خطأً بيِّناً لا يُغتَفر. إذ أية فائدة من القوانين، إن لم تكن نفوس الشعب مستعدّة لما تحويه من الأصول والمواد؟، بل أيّ نفع من النظامات، إذا لم يوجد لها حاكم أمين ينفِّذها بكلّ صدق واستقامة؟ فالقوانين لا تجعل الخامل ذكيّاً، ولا الكسول مجتهداً، ولا فاسد الأخلاق طاهراً كاملاً، والأنظمة لا تمحو الجرائم، ولا تردع الناس عن المنكرات، ولا تخفِّف عنهم الويلات، ولا تجعلهم سعداء، إلّا إذا أتاح لها حَكّام أُمَناء. قال عثمان بن عفان- رضي الله عنه-: «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» وما للقوانين من فائدة عملية سوى أنها تكون بمثابة المرشد للشعب، والدليل للحاكم، يستعين به على إجراء العدل والحكم بالحقّ، حتى لا يميل، ولا يجنف.

فالنظامات التي يحكم بها قوم أولو نَصفة وعدل، وذوو وجدان حرّ طاهر، تكون وسيلة لجعل المحكومين سعداء، وتمكِّنهم من اكتساب ما

يجعلهم في سعة من العيش ورغد من الحياة، وتسهّل لهم اجتناء ثمرة أعمالهم وأفكارهم.

والنظامات التي يحكم بها قوم أولو جَنَف واستبداد، وذوو وجدان خبيث يميل مع الهوى، تكون سبباً لشقاء الشعوب، ووسيلة ليأسهم من الحياة الطيِّبة والعيشة الراضية، مهما كانت تلك النظامات عادلة وجيِّدة؛ ذلك لأن الحكّام من هذه الطبقة يؤوِّلون النصوص على حسب رغباتهم ومشتهياتهم، وعلى ما يوافق هواهم ومنفعتهم الشخصية.

وهذا هو الشأن في الحكومة الماضية، فإن ما لديها من القوانين عادل وصحيح (وإن لزمه بعض تحوير وتنقيح)، غير أن الذين كانوا يحكمون بها قوم لا وجدان حرّاً لهم ولا عدل ولا إنصاف لديهم (اللهم، إلّا قليلاً نادراً، والنادر لا حكم له).

.....

كلّ عمل من الأعمال لابدَّ لحصوله من القابليّة والفاعليّة، فإن عدمت أحداهما بَطُل العمل. فإن لم توجد قابلية الإصلاح في الشعب فلا يمكن أن يكون راقياً، مهما كانت الوسائل فعّالة قويّة، وإن لم توجد الفاعليّة فمن العبث محاولة ترقية الشعب، مهما كانت القابليّة عظيمة، ومهما كان مستعدّاً للإصلاح والارتقاء، لأن المسبّب لا يوجد بدون السبب، فمتى انعدم السبب انعدم المسبّب، لا محالة.

فالأمم التي يوجد لها فاعلية، وليست فيها قابلية ليتحقَّق معنى الاستقلال، يجب أن تربّى، ويُبَثّ فيها روح النشاط والحياة الاجتماعية، حتى إذا

تمكَّنت منها تلك الروح نشطت واستعدّت لما تُلقيه إليها تلك الفاعليّة.

والأمم التي يوجد فيها قابلية، وليست لها فاعلية تؤثِّر فيها وتنهض بها، يجب أن يذهب أفراد منها لتلقّي العلم ودرس الحرّيّة الصحيحة وتعلُّم الأعمال المفيدة والصناعات، حتى إذا تمكَّنوا من كلّ ذلك رجعوا إلى قومهم وقد أتوهم بفاعليّة عظيمة وأسباب قويّة. وهناك، يبثّون فيهم ما درسوه، ويوحون إليهم ما تعلَّموه. وليست القابليّة إلّا الاستعداد للشيء، وليست الفاعليّة إلّا طائفة من كلّ أمّة امتازت برجاحة عقلها، وسموّ مداركها، ووفرة معارفها، وإحكامها الأعمال والصناعات.

فعلى هؤلاء يتوقَّف رقيّ الأمم ونجاحها؛ إذ لو بحثنا بحثاً دقيقاً لتجلّى لنا أن كلّ الشعوب المتمدِّنة الراقية لم تصل إلى ما وصلت إليه من التقدُّم إلّا بواسطة أفراد قلائل، بالنسبة إلى مجموع ذلك الشعب. وهؤلاء الأفراد هم الألى أوجدوا المدنية، وأحدثوا الصناعات، ونشروا العلم وكلّ ما يفيد بين أقوامهم.

يجب أن لا تنتظر الأمّة المساعدة الخارجة، ولا تعتمد، في ترقيتها ونجاحها، إلّا على نفسها، لأن تلك المساعدة، متى انقطعت قبل أن تصل الأمّة إلى الغاية المقصودة، تقهقرت، ورجعت إلى شرّ ممّا كانت عليه.

وكذا يجب أن لا يرتقب الشعب المساعدة من الحكومة، بل يجب عليه أن يساعد – هو– الحكومة بمادّيّاته وأدبيّاته، لأن الشعب الذي يكون عالة على الحكومة يثقل كاهلها. وقد قَدَّمنا أن الحكومة تكون تابعة للشعب ترقِّياً وتقهقراً، فلو لجأ الشعب إلى حكومته تكون، حينئذ، الحكومة أقوى منه، ويكون – هو – أحطَّ منها فلا يمضي مدّة حتى تنحطّ الحكومة،

وتقهقر إلى الشعب، وبذلك يكون انحلال القسمين وفساد القوَّتين.

أَمّا إن لم تعتمد الأمّة على الحكومة، بل كانت مُتَّكلة على نفسها، فإنها ترقى، في يسير من الزمن، متى استكملت الشروط المطلوبة للرقيّ. وحينئذ، إن كانت حكومتها متقهقرة متدنّية فلابدَّ أن تنهض وترقى، حتى تجاري الأمّة الراقية التي تحكمها.

القابليّة والفاعليّة

القابليّة هي استعداد الحيوان أو النبات أو الجماد للترقّي عمّا هو فيه إلى ما هو أسمى وأفضل، أو لما هو أحطُّ وأدنى، والفاعليّة هي المؤثِّر في هذه المواليد الثلاثة، ارتقاءً وانحطاطاً، غير أنهما شائعتان في الترقّي والأفضليّة، وذلك من باب تغليب اللفظ على أحد معنَيَيْه، ولا مشاحة في الإصلاح.

خلق الله هذه المواليد، وجعل فيها استعداداً وقابليّة للخير والشرّ أو الترقّي والتدنّي، غير أن بعضها يكون الاستعداد فيه عظيماً، والآخر يكون فيه وسَطاً، وغيرهما يكون فيه متدنِّياً أو مغشًّى، بحيث يُعتَبَر كأنه غير موجود، ثم خلق لهذا الاستعداد أو القابليّة أسباباً ووسائل أو مؤثِّرات وفواعل، تُعمِل محراثها في أرضهما ليظهر ما كَمن فيهما من خير وشرّ، على مقتضى ذلك المؤثِّر.

فإن لم يوجد في المواليد استعداد لقوّة ذلك المؤثِّر فيكون المؤثِّر كالعدم، وهكذا إن عُدِم المؤثِّر مع وجود القابليّة في المواليد، فتكون القابليّة كالعدم، أيضاً.

وتوضيح ذلك أنك لو عمدت إلى أرض ليس فيها استعداد للإنبات كأن

تكون سبخة أو صخرية، وبذرت فيها البذور، مع الاعتناء التامّ، فلا تُنبِت تلك الأرض شيئاً، مع أن الفاعليّة والمؤثِّر موجودان، ذلك لأن القابليّة مفقودة في تلك الأرض. ولو عمدت إلى أرض فيها استعداد للإنبات، فإن أنبتت تلك الأرض فيكون نباتها قليلاً غير جيِّد، ذلك لفقدان القوّة المؤثِّرة. ولو كانت الأرض صالحة ووسائل إنباتها موجودة لأنبتت نباتاً حسناً، وأعطت أُكُلَها كما يريد الزارع.

ولو أتيت بقطعة من الخزف «الفخّار»، وطرقتها بمطرقة، لتجعلها إناءً فلا تلبث أن تتحطَّم؛ لأنها غير قابلة لذلك. وكذا لو جئت بقطعة من النحاس، وأردت أن تحوِّلها إلى إناء بيدك، من غير مطرقة، فلا يتمّ ذلك لفقد السبب المؤثِّر. ولو أتيت بقطعة نحاس إلى صانع، وطَرَقها على مقتضى الأصول، تصير إناءً صالحاً للاستخدام.

ولو أتيت بإنسان وحملته على أن يتعلَّم علماً، ليس في استطاعته أن يتعلَّمه، لِعَدَم الميل إليه، أو لضيق عقله عنه، فلا يتعلَّم ذلك العلم ولو أتيت له بأمهر المعلِّمين وأبرع الأساتذة؛ ذلك لأنه لم يكن فيه استعداد يؤهّله لتعلُّم ما تريد تعليمه إيّاه. وهذا هو السرّ في عدم نجاح كثير من طلبة العلوم وتلاميذ المدارس. لذلك يجب أن يُنظَر في ميل التلميذ ورغبته ومقدار عقله، فإن وُجِد ميّالاً للعلم، وكان فيه استعداد له فليخصَّص لذلك، وإن وُجِد فيه ميل للتجارة أو الزراعة أو الصناعة فليخصَّص لهما، وإلّا أضاع عمره ووقته ومستقبل أيّامه سدًى. ولو أتيت بإنسان فيه استعداد للعلم مطلقاً، أو لفنٍّ من الفنون، كالأدب والفلسفة، غير أنك جئت بمعلِّم لا يعرف ذلك الفنّ أو هو غير متقنٍ فله، فلا يمكن للتلميذ أن يتعلَّم هذا الفنّ، ولو مكث بضع سنين، ذلك لأن القوَّة المؤثِّرة مفقودة، وهذا

هو السرّ في ضياع كثير من التلاميذ وإضاعة أوقاتهم على غير جدوى ولا فائدة، وهذا ما يجب أن ينظر إليه أصحاب المدارس- خصوصاً المدارس التابعة للحكومة- حرصاً على هؤلاء التلاميذ المساكين من تمضية سنيّ حياتهم في التعب والنصَب، دون أن يحصِّلوا ما قصدوا إليه من الفنون. ولو أتيت بتلميذ فيه استعداد لفَنّ من الفنون، وسلَّمته إلى معلِّم قادر على تدريس هذا الفنّ لَنَجح في وقت قصير.

إذا وضح ما تقدَّم أمكن أن نطبِّق حالة كلّ شعب وكلّ أمّة عليه، فإن الأمّة التي سمت مداركها واشتدَّت عزيمتها، واستدّت سهام إقدامها تكون قابلة لكلّ رقي، ومستعدّة لكلّ نجاح، وهذا هو الشأن في الأمم الأوروبية، فإنها بعد أن كانت أمماً خاملة جاهلة تتسكَّع في دياجير الأوهام، وتخبط في ظلام الجهل، وتسبح في بحار الاستبداد، نبغ فيها قوم أجهدوا نفوسهم، وذلَّلوا الصعاب، وهاجروا في سبيل تحصيل العلم وتلقّيه عن أساتذتهم العرب - الذين كانوا في ذلك الحين أمّة حيّة، هي مثال العلوم والفنون والصناعات والتقدُّم والرقيّ والقوّة والمنعَة والتبريز على الأقران، في كلّ معنى من معاني الحياة الاجتماعية، والمادّيّة، والسياسة- فلمّا نالوا ما قصدوا إليه رجعوا إلى قومهم، وبثّوا فيهم تلك الروح العالية التي نالوها من العرب، سواءٌ في المشرق وفي الأندلس، ونشروا بينهم أنوار تلك العلوم التي اقتبسوها، وما زالوا بشعوبهم يعلِّمونهم ويحثّونهم على اكتساب العلم والهجرة إليه، حتى تنبّهوا، شيئاً فشيئاً، إلى أن وصلوا إلى ما هم فيه الآن، فصاروا أساتذة العلوم والفنون، ومرجع الصناعات والاختراعات، فكانوا كلَّما تقدَّموا إلى العلم والمدنيّة ذراعاً تأخَّرنا باعاً، وكلَّما تقدَّموا باعاً تأخَّرنا ميلاً، فبلغوا وقصّرنا، وأفاقوا ونمنا، وصاروا يفتخرون بأعمالهم،

ونفتخر بأجدادنا، ويباهون بمجدهم الحاضر، ونُزهي بمجدنا الغابر:

لعمرك، ما الإنسان إلّا ابن يومه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه

وما الفخر بالعظم الرميم وإنما فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

هذا مثال من أمثلة الشعوب التي ترقَّت بعد الانحطاط بسبب تربية النقل والميل إلى الفضائل، حتى غُرِست فيها شجرة القابليّة التي أثمرت ما نراه، اليوم، من الثمرات الجنيّة الطيِّبة.

فعسى أن يقوم فينا رجال كما قام فيهم رجال، فيرشدونا إلى المهيع الحقّ، ويأخذوا بأيدينا إلى صراط الحياة المستقيم، ويربّوا في نفوسنا الاستعداد لصالح الأعمال، حتى نرجع إلى مجدنا السالف، ونحيي ما مات من آثارنا، وإلّا فعبثاً يحاول من ينادي الأمّة لترقى، دون أن يمهِّد لها السبيل، ويغرس في نفوسها أدواح المَيْل، ويقذف بأبنائها في المدارس، حتى تدرك معنى الحياة والاجتماع وفائدة النهوض، فإن المدارس الحقيقية هي التي تربِّي الاستعداد وتنمّي القابليّة، ومتى تمَّ هذان الأمران في الأمّة ووجد لها مؤثِّر وفاعل، فبشِّرها بالنجاح العاجل والفلاح القريب.

فإن قيل: أيّة فائدة من إيجاد المدارس التي تربِّي الاستعداد، إذا لم يكن هناك فاعليّة، وهي القوّة التي تقوم بتنظيم هذه المدارس وإدارتها وبثّ هذه الروح فيها، فإن هذه القوّة مفقودة عندنا؟، فنقول: لقد أخطأ من قال ذلك، فإن القوّة ليست بمفقودة، ولكن من يتطلَّبها مفقود، ولو بحث عنها لوجدها، وهي بمنزلة القوّة الكهربائية، لا تظهر إلّا بالاحتكاك، فلو طلبها الطالبون لرأوا من آثارها عجباً.

نعم، إن هذه القوّة ليست كما نريد؛ لأنها منحصرة في فئة قليلة لا تكاد تقوم بحاجيّات الأمّة، لكنها، لعدم استخدامها والانتفاع بها، فترت همَّتها وقلَّت الفئة المودَعة هي فيها. على أنها، وإن كانت قليلة اليوم، ستكون عظيمة في المستقبل، خصوصاً إذا أرسلنا طائفة غيرها إلى بلاد العلم، حتى إذا نالت ما ترجوه رجعت ونفعت قومها: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، «اطلبوا العلم ولو في الصين».

رُبَّ قوم يئسوا من رقيّ هذه الأمّة، وحكموا بعدم نهوضها من كبوتها؛ بسبب ما أفسده الظالمون من نفوسها، وما دمّروه من قواعد مجدها، ولو تأمَّلوا قليلاً، ونظروا في حال الشعوب الغربية وما كانت فيه وما آلت إليه، لرجعوا عن هذا الاعتقاد، فإن حالتنا، اليوم، هي خير من حالة تلك الأمم قبل أن ترى بصيصاً من العلم، ومع ذلك فقد نجحت حتى بهرت الشرق بعلومها واختراعاتها، وما ذلك إلّا بما بذلته من الهمّة القعساء.

نعم، إن بقي فينا قوم يائسون، ورهط منفّرون، يثبِّطون الهمم، ويلقون العقبات في سبيل المصلحين والذين يريدون إنهاض الأمّة، فإننا- بلا ريب- نبقى كما نحن الآن؛ عالة على الأوروبيين في كلّ شيء. أمّا إن رفعنا برقُع الجهل، وقتلنا مكاريب اليأس، وأنحينا باللائمة على مثبّطي الهمم وأعداء الرقيّ، ثم أخذنا بأيدي المصلحين وأعَنَّاهم على ما يقصدون، فلا يمضي حين من الدهر حتى نضارع الأمم الغربية، بل نفوقها في كلّ شيء. وما ذلك، على الهمم العالية والنفوس الطاهرة، بعزيز؛ فإن الذكاء الشرقيّ مشهور، والأقاليم التي يقطنها هي أحسن الأقاليم، ولكن، قد رانَ على ذكائنا رينُ الخمول والظلم، واختلط بترب أراضينا ميكروب الإهمال والاتِّكال،

ومتى كشف الغطاء، وماتت جراثيم ذلك الداء، فسيرى الغربي منا عجائب الأشياء، ويسمع غرائب الأنباء.

.....

الرقيّ محقَّق، والنجاح مؤكَّد، متى وضعنا هذه الأقوال موضع العمل والإجراء، أمّا إن بقينا نقول ولا نعمل، فعلينا السلام ورحمة الله وبركاته:

لا ترجُ يا شـــرقُ الـــــرقيَّ بمقوَلِ شـــــرُّ المقال عليك إن لم تفعلِ

فانهض – ولا ترهب – إلى الشرفِ العلي ودع الفخار بمن مضوا واستبسلِ

«وأقـــــدم إذا حـــقّ اللقـــا في الأوَّل[1]»

.....

الثورة الأدبية

أو ثورة الأخلاق والمبادئ

نهوض الأمم وقعودها، وتقدُّمها وتأخُّرها، وحفظ كيانها، وانهيار مكانتها، كلّ ذلك أثر من آثار أخلاقها، ومفعول من مفعولات صفاتها، وتلك قاعدة أجمعَ على صحَّتها علماء الأخلاق والاجتماع، وعوّل عليها أهل العمران

(1) هذه القطعة لصاحب الكتاب من إحدى «القصائد الشرقيات».

والسياسة؛ فحيث وُجِدت الأخلاق الصحيحة وحبّ الفضيلة، وحيث رُكزت الأعمال على دعائم القلوب الحرّة، وبُنيت على أُسس الوجدانات الفاضلة، فهناك الأمّة الراقية والشعب الحَيّ. وحيث فسدت الأخلاق، وتقوَّضت دعائم الطباع الحرّة، فهناك الشعوب السافلة والأمم المنحطّة. ومن العبث المحض محاولة ترقية أمّة من غير سلوك تلك السبيل، سبيل تقوم الأخلاق المعوجَّة، وتنقية القلوب الدنسة، وتصفية الطباع الكدرة. ومن سعى غير هذا المسعى فقد ذهب سعيه أدراج الرياح، فكانت أعماله هباءً منثوراً.

تلك سنّة الله في عباده «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا»، وقد أنبأتنا الأخبار، وعلَّمتنا الأسفار، وأرشدتنا دلائل الاعتبار، وأوضحت لنا شواهد الاختبار، أن عوامل التربية والتعليم هي أعظم مؤثِّر في نفوس الأمم، وأنها هي السبب الوحيد، والدواء الشافي لأدوائها، فلا رقيّ ولا نجاح إلّا بتغيير الأخلاق الشائنة، ونزع الصفات الضارّة.

درج على ذلك الأنبياء والفلاسفة، وتَبِعهم علماء الأخلاق والاجتماع، ولنا فيهم أسوة حسنة، وقدوة صالحة.

.....

جاء موسى- عليه السلام- فوجد شعب إسرائيل ضالّاً طريق الحقّ، وقد انغمس في حمأة المفاسد، وتلوَّث بأوضار العادات السيِّئة، فبذل الجهد في إصلاحهم، وصرف وسعه وطاقته لحملهم على معالي الأمور، فكانت نتيجة سعيه قليلة، ونور عمله ضئيلاً، فلمّا عزم على أن يسير بهم فاتحاً ومبلّغاً أوامر ربه، امتنعوا؛ جبناً وخوراً، وقالوا له: «فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»، ذلك لأن الشعب قد كهلت في نفسه العادات، وشاخت في قلبه الخرافات، واستولت عليه التقاليد والجبن.

فلمّا ضاق موسى ذرعاً، حتى حار في أمر إصلاحهم، أفهمه الله أن لاسبيل إلى ذلك، ولا وسيلة لما يبغي. لكنه أرشده إلى أن يسير بهم إلى المكان المعروف بتيه بني إسرائيل. والحكمة من ذلك أن يبتعدوا عن الأمم المجاورة ليتمكّن ممّا يريد. فسار بهم، وبقوا أربعين سنة يتيهون في الأرض، فانقرض بسبب ذلك الجيل الذي تأصَّلت في نفسه التقاليد التي كانت تمنع من تلقّي تعاليم موسى (عليه السلام)، ونشأ منه جيل لم يتعوَّد الترف وفساد الأخلاق، بل شبَّ على حسب ما يريد موسى، ودرج على الأخلاق القويمة، ومشى في سنن العدل والفضيلة. وهناك، زحف موسى بالنشء الجديد فاتحاً، داعياً إلى الله، فلبَّاه طوعاً واختياراً؛ وما سبب ذلك إلّا تربية ملكة الأخلاق والفضائل حتى صارت طبيعة له.

.....

جاء عيسى (عليه السلام) وقد فسدت طباع هذا الشعب، فبذل مافي طاقته لتثقيف عقله وتربيته تربيةً صالحة، فاضْطُهِد وأُهين، غير أنه بقي مثابراً على ذلك حتى استخلص لنفسه اثني عشر صديقاً، عوَّدهم مكارم الأخلاق، وبثَّ في روعهم حبّ العمل الصالح وخدمة الأمّة، إلى أن رفعه الله إليه، فانتشر تلاميذه في الآفاق وبثّوا دعوته، ونشروا تعاليمه بالترغيب والترهيب والوعظ والإرشاد، فخلَّصوا أمماً كثيرة من الشرك وفساد الضرائب والعادات الضارّة.

.....

جاء محمد (عليه الصلاة والسلام)، وكان الجهل والفساد قد عمَّا البلاد، واستوليا على جميع الأمم، خصوصاً الأمّة العربيّة التي استباحت إهراق

الدماء، ووأد البنات، وعبادة الأصنام، وغير ذلك من الأعمال الشائنة والعادات الضارّة، فسعى لتحسين حالهم وإنهاضهم من طريق التربية والموعظة الحسنة، فلم تمضِ مدّة حتى حَسُنت أحوالهم، واستقامت أفكارهم، وبلغوا من التقدُّم ورقيّ الأفكار شأواً بعيداً. ولم يجئهم، لإصلاحهم، من طريق القسوة والشدّة وإشهار السيوف في وجوههم. وإن ما حصل من الغزوات والحروب إنّما هو لحماية الدعوة من المعارضين، ومقابلة لاعتداء المعتدين، وظلم الظالمين، من المشركين الذين كانوا يؤذونه ويسلّطون أشرارهم عليه وعل أتباعه، ويشنّون الغارة، ويقطعون السبل، ويفعلون الأفاعيل، ويعملون من ضروب العدوان والجور ما لا يُحصى. كلّ ذلك ليحولوا بينه وبين ما جاء به من الهداية، مع أنهم يعلمون أنه الحقّ من ربِّهم، ولكنها الأنفة والاستكبار. وهم يعلمون حقّ العلم أنه متى انتشرت دعوته، وكَثُر متّبعوه حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون، وانقطعت آمالهم، ومُحِيت سيطرتهم، وطُمِست أعلام عتوّهم وجبروتهم، لأن من قواعد الدين مساواة الصعلوك بالأمير، في كلّ حق من الحقوق، فهم كأهل الارتجاع يعلمون فوائد الدستور، ويعرفون نتائج العدل والحرّيّة، ولكنهم يشايعون الظالمين، وينصرون المستبدّين، ويعارضون الحرّيّة والدستور، بكلّ قواهم، كلَّما لاحت لهم بارقة أو اغتنموا فرصة؛ ذلك لأن الحرّيّة قد قضت على آمالهم ومآربهم، والدستور قد ساوى بينهم وبين من كانوا يظلمون. ولا تسكن ثائرة هؤلاء الزعانف، ويؤمَن شرُّهم إلّا إذا حوكموا لدى المحاكم العرفية. وهكذا، كانت حروب النبيّ وأصحابه أشبه بحروب عرقية، يُقصَد منها درءُ العدوان واستئصال شأفة المنافقين المستبدّين الذين كانوا يهيِّجون عليهم القبائل، ويجيّشون لهم الجيوش، لذلك لم يكن يحارب إلّا من حاربه، ولا يناوئ إلّا من ناوأه، ولا يجبر أحداً على

اتِّباعه والإيمان بما جاء به: «لا إكراه في الدين»، «لكم دينكم وليَ دينِ»[1] .

.....

هكذا كانت سيرة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وهكذا شأن العقلاء والفلاسفة في كلّ جيل وكلّ أمّة؛ يأتون الأمّة من أبواب التربية وتنوير العقول حتى إذا تمَّ لهم ما أرادوا نهض الشعب من قِبَل نفسه، ونزع عنه أردية الخمول، وطرح معاطف الجهل والفساد- وتلك هي الثورة الأدبية أو ثورة الأخلاق والمبادئ، وبها نجح الأنبياء، وأفلح المصلحون.

إن الثورة لطلب الحقّ والحرّيّة بالسيف، إن لم تتقدَّمها الثورة لإصلاح العادات وما درج عليه الشعب من الأخلاق السافلة، لا تجدي نفعاً ولا تغني فتيلاً، لأنه متى سكنت ثائرة المطالبين بالقوّة، واستمالهم الباطل إليه عادت الأمّة إلى أشدّ ما كانت عليه، من الظلم والخمول ورقدة العزيمة.

أمّا إن كانت الأمّة هي المطالبة بذلك؛ بسبب ما عندها من الأخلاق الراقية والآراء النيِّرة والاستعداد لمعالي الأمور، فلا يمكن أن يتمكَّن أهل الباطل من إرجاعها إلى الحالة الغابرة بعد أن نالت حرِّيَّتها، واستولت على رغباتها، فإنها، عند ذلك، تقوم قومة هائلة، وتناضل عن حقِّها، وتدافع دون مدّ يد السوء إلى أحبّ حبيب لديها، وأعزّ مشتهى عندها...

.....

(1) أوضحنا هذا المقام، مقام كيفية انتشار الدين الإسلامي، في كتابنا «الإسلام روح المدنية»، الذي رددنا به على «لورد كرومر» في كتابنا «خيار المقول في سيرة الرسول»، وأبَنّا- بأجلى بيان- أن الدين إنما قام بالدعوة لا بالسيف، وأن السيف إنما شُرِّع لحماية الدعوة عند المعارضة، ودفعاً لاعتداء المعتدين.

الثورة: نهوض يقصد منه تغيير في السياسة أو الاجتماع أو الأخلاق من قبيح إلى حسن، أو من حسن إلى قبيح، وقد يعبَّر عن الغاية الأولى بالانقلاب، وعن الثانية بالهيجان. وقد يُخَصّ القيام لطلب الحقّ بالانقلاب، والنهوض لمناصرة الباطل بالثورة- والثورة للحقّ من مطالب الأمم الراقية. غير أن النهوض لتغيير نظام السياسة لا يفلح أنصاره، ولا تثبت دعائم مطالبهم إن لم يسعوا، قبل ذلك، لتغيير نظام الاجتماع والأخلاق حتى يكون للأمّة استعداد لتلقّي ما يراد إيجاده. وحتى لا تثور ضدّ ما يخالف الأنظمة القديمة والعادات السائرة فينتج حبّ التغيير عكس المقصود. ولو فرضنا أنها لم تثُرْ، ولم تعارض في جديد النظام وحديث التغيير، فإنها لا يمكن أن تستفيد من الإصلاح شيئاً، بل- ربَّما- يكون الإصلاح شرّاً عليها من عاداتها القديمة، ولو كانت ضارّة. وهذا قول- ربَّما- لا يسلِّم به كثير من الناس، لكنهم لو تروَّوا قليلاً، وسلكوا في البحث جادّة الاستطلاع والتنقيب لسلَّموا بما نقول تسليماً. وهاك، على ما نقول، أدلّة بسيطة يسلِّم بمقدِّمتها ونتائجها كلّ إنسان:

- لا ريب في أن حالة الأمم المريضة الأخلاق والجاهلة كحالة الرجل الضعيف القويّ أو المبتلى بمرض من الأمراض. ولا ينكر أحد أن المآكل المغذِّية كاللحوم والخضراوات مفيدة جدّاً، إن لم تتعَدّ قانون الصحّة. ومع هذا، فلو تناول ذلك الرجل المريض شيئاً منها، فلا شكّ في أن مرضه يزيد، وشفاءه يبطؤُ؛ لذلك يسعى الطبيب إلى إعطاء العلاج المناسب لتقوية جسمه وإرجاع قواه وإذهاب مرضه. حتى إذا بلغ القصد وزالت العلّة، يصف له من المآكل اللطيفة ما يناسب معدته. وحين يصل إلى درجة الشفاء التامّ يبيح له أن يأكل ما شاء، ويرغِّبه في تناول الأطعمة المقوِّية.

وهكذا مرضى العقول والأخلاق، تضرّهم السياسة، والثورة لها، والنظامات الراقية التي تُنال بواسطتها، لأنها بمنزلة الأطعمة المقوِّية التي لا تتمكَّن المعدة من هضمها إلّا بعد تقويتها بالأدوية. فيجب، قبل ذلك، أن تداوي عقولهم وأخلاقهم التي هي معدة الاجتماع، حتى إذا صَلُحَت وحَسُنَت وصارت مستعدّة للحكم الراقي، وهي غير نائلة إيّاه، ثارت لطلبه من طريق السياسة.

وليعلم أنه بقدر استعداد الأمّة للحكم الدستوري والإصلاح تنتفع من ذلك. فإن نالت الدستور، وأبيح لها الإصلاح غير أنها لم تستنتج شيئاً، فاعلم أنها أمّة غير صالحة لهذه النعمة؛ لأنها لم تقدِّرها قدرها، ولم تهيِّئ لها الأسباب اللازمة الكافلة ببقائها والمستخرجة لفوائدها. وليس الذنب على القوانين، ولا على القائمين بتنفيذها، بل الذنب على الأمّة التي تحكم بتلك القوانين. لأنها تدع منفِّذيها يفسِّرون موادّها بحسب مشتهياتهم، دون معارضة ولا مصادمة. وعندي أن هؤلاء المنفِّذين أو الحكّام غير ملومين. لأنهم يرون شعباً حقيراً وأمّة جاهلة خاملة فاسدة الأخلاق، فيعتقدون أنهم إن مشوا في سنّة العدل، وسلكوا السبيل القويمة، يعارَضون من قِبَل تلك الأمّة، لأنها لا تريد العدل، ولا تميل إلى الإنصاف. وحين يرى الحاكمُ ذلك، من الأمّة، يعلم أنها ضعيفة، فيلعب بها كما يلعب الصبيّ بالكرة، ويستبدّ بشؤونها، ويتصرَّف بمصالحها بحسب إرادته ومشتهاه.

ومن الغريب أنه توجد طائفة منها، فضلاً عن استكانتها وخنوعها لكلّ إشارة من الحاكم، فإنها تدلّه على طريق العبث بالمرافق والاستئثار بالأعمال، وتسهِّل له الطريق إلى ذلك تسهيلاً. وهؤلاء هم أخصّاء الحكّام وأعداء الأمّة، وإن هم كانوا بعض أفرادها، فإن نفوسهم قد تعوَّدت الرياء

والمداهنة والتزلُّف وغيرها من الأوهام التي يعدّونها شرفاً؛ لأنهم يحسبون التقرّب من الحاكم فخراً ومجداً.

فالأمّة التي ترضى عن مثل هؤلاء الأفراد منها، وتبجّلهم، وتعظِّم مقامهم هي أمّة ساقطة، لا يجدر بها إلّا الظلم، ولا يناسبها إلّا الاضطهاد، لأنها فقدت عاطفة الإباء، وماتت فيها روح المجد، لذلك استسهلت الهوان:

من يَهُـــنْ يـسهل الهـوان عليه ما لجـــرحٍ بمـــــيّتٍ إيلام

.....

إن الأمّة التي هي على هذه الشاكلة، إن ثارت في متنوِّريها وعظماء رجالها ثائرة الإصلاح السياسي، قبل أن يتقدَّمه الإصلاح الأخلاقي وثورة الفلاسفة وأهل التربية، يكون ويلاً عليها، كما أسلفنا. فإن تَمَّ نوال الإصلاح السياسي قبل الأخلاقي، وانتشرت في الأمّة القوانين الراقية، وحُمل الحكّام على القضاء بها، رأيت تلك الأمّة آسفة كلّ الأسف على ماضيها وعلى الحالة التي كانت فيها، وتتمنّى لو ترجع في حافرتها، مع أنه لا يشكّ عاقل في أن حالتها الحاضرة هي خير من حالتها الماضية، وأيّ ذي لبٍّ يشكّ في أن العدل والمساواة خير من الجور والحكم بمقتضى الهوى، ورغبات النفوس الظالمة الفاسدة؟.

وأعجب من هذا كلّه أنك ترى حالة هذه الأمّة، بعد انتشار العدالة والحكم الحقّ فيها، شرّاً من حالتها الغابرة؛ لهذا تتمنّى الرجوع إلى سالف عيشها، وتودّ الارتداد عن الحقّ إلى الباطل. والسرّ في ذلك معروف لأهل التفكير والعلم بأحوال البشر؛ ذلك أن الأمّة التي اعتادت الظلم والاستكانة وفساد

الأخلاق تستلذُّ ذلك، ولا تشعر بوخزه، لضعف الشعور ومرض العقل، ولكنها أن حُملت على أضداد هذا الصفات، ونُهنهت عن عاداتها الضارّة، وثبِّتت على النفور عنها، فتنغرس في نفوسها الفضائل حتى تتشعَّب جذورها، وتكثر أغصانها، فلو أريدت، بعد ذلك، على الرجوع إلى حالتها الماضية أبت أن تعود، وقاومت مُريدها أشدَّ المقاومة. وما سبب هذا وذاك إلّا تحكُّم العادات، فكما أمكن تأصُّل الشيء يمكن استئصاله، وغرسُ الفضيلة في مكانه، وتعهُّدها حتى تتأصَّل جذورها، وتنمو فروعها.

هذا، وإن ما نشاهده، اليوم، من تأخُّر الإصلاح وسوء الحال منشأه مرض أخلاق الأمّة وضعف قوى اجتماعها، وتحكُّم عاداته الدور البائد فيها، ولولا ذلك لكانت نتيجة الإصلاح، اليوم، دانية القطوف، عامّةً المملكة بأسرها.

نسمع أن كثيراً من الناس يفضّلون الماضي على الحاضر؛ لا حبّاً في الأوّل ولا كرهاً في الثاني، بل لأنهم لم يشاهدوا من الإصلاح والرقي ما كانوا ينتظرون، بل رأوا أن حركة الأعمال والتجارة قد ضعفت عمّا قبل- إنهم يقولون حقّاً، غير أنهم يجب أن يتربَّصوا قليلاً، ويسعوا لإصلاح أخلاق أمّتهم حتى تصير أمّة راقية. ومتى وصلت الأمّة إلى درجة الرقيّ الفكريّ والأخلاقيّ فإنها تثور ثورة أخلاقية اجتماعية من قِبَل نفسها، فلا ترضى، إذ ذاك، من الحكّام، إلّا من هو أهل للمنصب الذي يوسَّد إليه، وتكون مراقبة أعماله وماجريات أحواله وشؤونه العامّة، حتى إذا رأته صادقاً وخادماً أميناً رضيت عنه، وإلّا أرجعته إلى العدل وسنن القانون، فإن لم يسِرْ في تلك السبيل أسقطته، واضطرّته إلى الاعتزال.

لا جدال في أن شكوى هؤلاء إنّما هي من الحكّام، لا من القوانين والانقلاب الدستوري.

– مَنْ هؤلاء الحكّام؟ أليسوا من الأمّة؟ فلو كانوا راقية أفكارهم صحيحة أخلاقهم، فهل كانوا كما هم اليوم؟ لا ريب في أنهم لو تربّوا تربية صحيحة، وعُوِّدوا الحكم بالحق، دون مراعاة ولا ميل لمنفعة، لرأينا منهم في هذا الدور السعيد رجالاً ينهضون بالأمّة، ويقوِّمون من اعوجاج أعمالها. فلنسخط– إذن– على الحكّام، لا على الدستور والحرّيّة.

فإن قيل: إن الدور الماضي والدور الحاضر سواء؛ لأن أكثر الحكّام، اليوم، هم الحكّام بالأمس. نقُلْ: ذلك حقّ، ولكنهم بعد أن كانوا مطلقين صاروا مقيَّدين بإرادة الأمّة، غير أنه لما لم يكن للأمّة إرادة، بل سلّمت إرادتها إليهم، أخذوا يرجعون إلى ما اعتادوا من ذي قبل، شيئاً فشيئاً. فهل للأُمّة أن تقف في وجوههم وتجبرهم على عدم الخروج عن موادّ القوانين الدستورية؟

فإن فعلت ذلك نجحت، وجنت فوائد الأنظمة الجديدة، وإن بقيت كما هي اليوم خاملةً مستكينة، فالعاقبة غير حميدة.

فأين رجال الأمّة الذين يريدون إصلاحها، ويسعون وراء ترقيتها؟ فليبذلوا جهدهم في استخلاص الشوائب من نفوسها، وتنقية الأوضار من أخلاقها، وتشذيب المفاسد من بساتين قلوبها.

وبغير هذه الوسيلة، لا يمكن الفلاح، ولا يتأتّى الرقيّ الذي نسعى وراءه ونطالب به.

والخلاصة أن الأمّة هي السبب في إنجاح مقاصدها، وهي السبب في ذهاب مطالبها أدراج الرياح.

وما سبب ذلك كلّه إلّا الأخلاق، فعلينا بإصلاح الأخلاق:

وإنمـــا الأمم الأخـــــلاق ما بقيت فإن هـــمُ ذهبت اخـلاقهم ذهبوا

السلّ الاجتماعي

الإنسان مخلوق في أحسن تقويم وأبدع نظام، كُملت صفاته الظاهرة، كما حسنت مميِّزاته الباطنة. أسكنه الله هذه البسيطة ليعمرها، وأطلق فيها يده ليستخرج خيراتها. أوجده ليكون خليفته فيها، فيدبِّر شؤُونها، ويحسن سيره في مناكبها، وقيَّده بأنظمة عادلة، وربَطه بأسباب قويّة، حتى لا يتعدّى ما خُلق لأجله، فيحلَّ به ماحلّ بأممٍ وُجِدت قبله، وينالَه ما نالها من التلاشي، ويصيبه ما أصابها من المحو من لوح هذه الكرة. الإنسان اجتماعي، فهو عرضة لأن يطرأُ عليه ما يطرأُ على كلّ اجتماع فيبدّد شمله، ويفرط عقد نظامه، كما أصاب الأمم التي سكنت هذه الأرض قبل أن يقطنها الإنسان.

تلك أمم قد خلت، وقد كانت- كما نحن اليوم- عامرةً الأرض ومثيرتها، عاملةً على استخراج خيراتها، جادّةً نحو إحيائها. ولكن، قد أصابها ما

مَحَقها، وترك ديارها قاعاً صفصفاً، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً. أجل، لقد سرى فيه مرضٌ قضى على اجتماعها، ولم تقض اللبانةمن وجودها، قد اندسَّ فيها ذلك الداء العياء، الذي ما اندسَّ في أمّة من الأمم، وتغافلت عن مداواته، إلّا كان سبب اندثارها وعلّة محقها.

نشأ في نفوس تلك الأمم التحاسُد والتباغض وحبّ الأثرة، فنشأ عن ذلك ترك عمران الأرض، والاشتغالُ بسفك الدماء، وضرب الأقوام، بعضهم رقابَ بعض، حتى آل ذلك إلى أن حكَّم الله فيهم نظامه في الأكوان، ذلك النظام الذي يؤخذ فيه خلقه بما ظلموا، تدريجاً، حتى لم يُبقِ منهم أحداً، فلا ترى لهم اليوم من باقية، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ».

ذلك الخليفة هو آدم وبنوه، وقد تشاءَم الملائكة أن يكونوا كما كان من وُجِد قبلهم من الأمم: سفكةً للدماء، مفسدين في الأرض، فيصيبهم من المحق والمحو ما أصاب أولئك الأقوام.

.....

خلق الله المخلوقات، وجعلها أجناساً، وجعل تحت كلّ جنس نوعاً. من هذه هذه الأجناس الحيوان، ومن أنواعه الإنسان، وهو الحيوان الناطق أي المدرك العاقل. فإليه انتهى ارتقاء هذا الجنس، وعنده انقطعت سلسلة ترقّيه. قال الله تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ»، وما هذا التكريم إلّا بما أودعه فيه من القوى الكاملة، وبما ميَّزه به من العقل، ذلك الجوهر الصافي المشرق من الملكوت الأسمى والمحلّ الأرفع. فبه يؤخذ الإنسان، وبه

يكون مظهراً للرضوان، وبه يسير في مناهج الحياة، وبه يعرف الخير من الشرّ، ويميز الخبيث من الطيِّب.

فالإنسان، في الحقيقة، ليس مجرَّد هذه الصورة الظاهرة، ولا هذا الجسم النامي، ولا تلك التقاطيع، بل هو ذلك الجوهر السامي، الهابط على هذا الجسم النامي. هو ذلك الأمر الربّاني، المتحلّي على هذا الهيكل الجسماني. لأن الإنسان إنسان، من يوم يُخلَق إلى يوم يموت، وما يدركه ويعمله في حياته دائم لا يزول. ومع أن جسمه يتبدَّل كلّ مدّة، فإن أجزاءه، اليوم، هي غيرها قبل عشر سنين، بلا ريب. فالإنسان- إذن- هو تلك الروح العالية والجوهر المدرك، وما سواهما هو آلة وواسطة، وهذا هو السرّ الذي فضَّله الله به على خلقه.

إذا كان لهذا الكائن الصغير، وهو الإنسان، تلك المنزلة العظمى، فليس وجوده إلّا لحكمة عظيمة، هي غاية ما يمكن أن يصل إليه عقل البشر. وتلك الحكمة مجملة في قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ» والعبادة، هنا، بمعنى المعرفة كما حقَّق ذلك جمهور من المفسِّرين. فالغاية- إذن- من خلق الإنسان هي أن يعرف الله حقّ معرفته، ومتى عرف الإنسان ربَّه يتشوَّق إلى طريق يسلكه ليصل إليه، ويتقرَّب منه. وما الوصول إليه والتقرُّب منه إلّا العمل بما يرضيه، ليكون ذلك واسطة الإحسان وإغداق النِعَم.

.....

الأمم التي تسير بما يرضي الله، وتجعل عمران الأرض هدفها الذي ترمي إليه، وغايتها التي تقصد إليها، هي الأمم التي يغدق الله عليها نعمه،

ويجعلها سيِّدة الأرض، والقابضة على زمام منافعها وخيراتها، والآمرة الناهية في كلّ شأن من شؤون سكّانها، والإمام الذي يُقتدى به من تقاعس عن انتهاج منهجها، ثم دبَّت فيه الحياة دبيبها، فاهتمّ بإصلاح حاله، وعُنِي بكسر قيود الخمول عن عقله.

.....

إن نهوض الأمم وترقّيها، وتسامي درجاتها وتعاليها، ليس من الاتّفاق في شيء، بل إن للترقّي نظاماً، وأن لبلوغ الأمّة غاية المجد قانوناً، فمتى وجهت الأمّة عزيمتها نحو العمل بنظام الترقّي والأخذ بأسباب النجاح، وصبرت على ما تلاقيه من العقبات، في سبيل تطبيق هذا القانون، فإنها تصل إلى ما ترجوه من السعادة، وما تتطلَّبه من الفلاح، ولو بعد حين.

إن الإنسان المادّي- وأعني به هذا الهيكل المرئي- إذا لم يعمل بقانون حفظ الصحّة ، ويتَّخذ الحيطة دفعاً للعوادي، أحاطت به الأدواء من كلّ جانب، وهرعت إليه الأمراض من كلّ مكان سحيق.

ألا وإن الإنسان المعنوي- أعني به الروحي- إذا لم يعمل بقانون حفظ صحّة اجتماعه، انهالت عليه الطوارئ المعنوية، وانصبَّت على مجموعه المدني أمطار من السوء تفقده مميِّزاته وأخلاقه، وتجعل وجوده الروحي كأمسِ الدابر.

الأمراض المادّيّة كثيرة، ومن أقبحها، فعلاً واسماً، ذلك الداء الوبيل الذي ترتعد الفرائص فرقاً من ذكره، وهو السلّ، وقانا الله وإيَّاكم وسائر خلقه من فتكاته.

وكذلك هي الأمراض المعنوية كثيرة، ومن أقبحها، فعلاً واسماً، ذلك الداء الضاري الذي لا يخافه إلّا القليل، وهو الذي اخترت أن أُسمّيه «السلّ الاجتماعي» أَعان الله صلحاء الأمّة ومصلحيها على ردّ هجماته، والتخفيف من ويلاته.

إن الإنسان المادّي، متى نزل به داء السلّ فإنه لا يزال يضؤل وينحل حتى يدعه كالخلال، ويجعله كالخيال، إلّا إذا تعهَّده الأطبّاء بالأدوية الشافية. والعلاجات التي تصدُّ تيّاره.

وكذلك الإنسان المعنوي، متى أَلَّم بساحته «السلّ الاجتماعي»، فإنه لا يزال تضؤُل أخلاقه، وتنحلّ مميِّزاته، حتى يجفّ غصن حياته الروحية، فيصبح كالحيوان الأعجم، لا يعرف من الحياة إلَّا ما يشاركه به الحيوان، ويظنّ، بل يعتقد، كما يعتقد من بُلِيَ بهذا الداء، أنه لم يُخلق لغير هذا، كما قال قائلهم:

إنـــما الدنيـــا طـــعـام وشـــــــراب ومـــــنامْ

فـــــإذا فـــــاتك هـذا فـــــعلى الدنيا الســـــلامْ

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: «إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا».

أجل، إن الحيوانات السائمة هي خير من هذا الصنف الذي يُعَدُّ من الإنسان، وليس من الإنسانية في شيء، لأن الإنسان شيء والإنسانية شيء آخر، ذلك لأن السوائم إن لم تنفع فإنها لا تضرّ، بل إن كثيراً منها ينفع غيره، إمّا بحمل الأثقال إلى بلد لم نكن بالغيه إلّا بشق الأنفس، وإمّا بأن يكون غذاءً، منه نموّ أجسامنا وبقاؤُها، إلى غير ذلك من المنافع المادية.

وأمّا الإنسان الحيواني، فضلاً عن كونه مضرّاً بنفسه، فإن ضرره يتعدّى إلى غيره من أبناء جنسه، ويكون وجوده ضربة قاضية على الإنسانية، وسيفاً مسلولاً على عنق الاجتماع والعمران. لأن هذا الصنف من الناس لا يفتأ يسعى، ليلَ نهارَ، لتقويض أركان المجتمع، بما يأتيه من ضروب الأنانية وما يعمله من أنواع المخازي والأضاليل لجرّ منفعة ذاتية، وجَلْب ما يأمره به هواه النفسي، ولو أضرَّ ذلك بمجموع الأمّة التي هو عائش في بيئتها، ومتمتّع بخيرات أعمالها، وثمرات جِدّها واجتهادها، دون أن يفكِّر في أن ضرر عمله هذا ليس عائداً على أُمَّته فقط، بل هو راجع إليه، أيضاً، لأنه واحد منها، وما يعود على المجموع هو عائد على الفرد ألبتّة، ضرورة أن البلاء متى نزل فهو يعمّ، وأن الفرد لا حياة له إلّا بالمجموع. لكنهم لا يأبهون لهذا المعنى، ولا يحفلون بذلك المغزى. وكيف يعبأون بهذه الفلسفة، وقد قال قائلهم:

إنّما دنيـــاي نفســـي فـإذا ذهـــبت نفسي فلا عاش أحدْ

ليت أن الشمس بعدي غـــربت ثم لم تـــطـــلع على أهل البلدْ

متى عمَّت هذه الفكرة السيِّئة، وانتشرت بين أفراد الأمّة، فإنها تكون عاملاً كبيراً في هدم أساس الأخلاق الفاضلة، وسبباً عظيماً لقذف الأُمّة من الحالق إلى الحضيض، فتفقد ما لديها من مجد، وتضيّع ما عندها من سؤدد؛ ذلك لأن الأمّة تعتورها عوامل الأهواء، وتحيط بها عوادي الأنانية، وتساورها أراقم الأحقاد، فيحلُّ بها البلاء، ويلازمها الشقاء، وتنزل بها الأدواء: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

.....

إن هذه الفكرة، فكرة التعلّق بالمادّيّات الخالصة، قد أصاب هذه الأُمّة المسكينة كثير من أضرارها، حتى كادت- بسبب ذلك- تمَّحي من لوح الوجود، فقد كان كلّ من يولي عملاً في هذه الدولة، لا يرغب فيه إلّا لجرّ مغنم لنفسه، لا ليسعى لخدمة الأمّة أو يدفع عنها مغرماً، على الأقلّ. فانتشرت- بسبب ذلك- الجاسوسية والرشوة وفساد الأخلاق، وأشرفت الدولة على شفا جرفٍ هارٍ، فانهارت به، أو كادت، لأن من لوازم هذه الفكرة السافلة الاستبداد بالأمّة واستعبادَها، واستنزاف أموالها، والقضاء على أخلاقها، وقتل روح الحياة الاجتماعية من جسم مجموعها، وإماتة العواطف الوطنيّة التي تضمّها جوانحها، حتى تصبح كالحيوانات السائمة، مقيمة على الذلّ، راضية بالخنوع، لا يلذُّها إلّا الخضوع:

ولا يقيم على ضـــيم يراد به إلّا الأذلّان: عير الحـيّ، والوتد

ألا وإن كلّ ما نراه، اليوم، في الأمّة، من فساد الأخلاق والجهل والتأخُّر وغير ذلك من ضروب الشقاء، إنّما سببه الأَثَرة والأنانية وحبّ الذات على غير المعنى الصحيح. وعن هذه الأدواء القتّالة قد نشأ كلّ فساد نراه، وصَدَر كلّ شرٍّ نشاهده.

.....

قلَّما نرى الأمّة تعمل جماعات جماعات، حاملةً لواءَ التضامن، ضامّة بين جوانحها روح التكاتف، بل نراها مشتَّتة الآراء، متشعِّبة المقاصد، مختلفة الأهواء، إذا دعوتها لتجمع شملها شمست، وإذا أَهبتَ بها لتلمَّ شعثها جمحت. أمّا إذا ناديتها لحَلّ الأواصر- إن كان هناك أواصر معقودةٌ- هُرِعت. وإذا حسَّنتَ لها منكوراً، وزيَّنت لها أمراً فريّاً، ثَلُجَ صدرها،

وأشرق جبينها، كأنك جئت شيئاً مشكوراً!.

يتهافت كثير من الأمّة على الملاذّ المادّيّة تهافُتَ الفراش على النار، أو الجياع على القصاع، ويجودون، في سبيلها، بما لا يعلمه إلّا هم من الأموال التي لو أعانوا بها أُمّتهم، لتصرفها على المشروعات العامّة، لكانت خير أُمّة أخرجت للناس، حتى إذا دعوا لما فيه ترقية الأوطان، وإعلاء الشأن، لوَّوْا رؤُوسهم معرضين، وولَّوْا مدبرين، كأنك تدعوهم إلى داهية نكر، أو أمرٍ بُجر، إنَّ هذا- والله- لهو الخسران المبين، والداءُ الدفين.

.....

ذلكم هو الإنسان (الذي ماخلق إلّا ليكون اجتماعياً) يفكِّك عرى الاجتماع، بما يأتيه من ضروب الفسوق عن الإنسانية، وما يعمله من أنواع الهجمية. وقد نسي أن «الإنسان أَخو الإنسان، حبَّ أم كَرِه، وأنَّ الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله»، كما جاء في الحديث الشريف. ما السرّ الذي صدق بهذا المخلوق الكريم عن سلوك السبيل التي أمرَ بالمسير فيها؟ وما السبب الذي قعد به عن الطيران في جوّ الفضائل؟ وما الذي أفقده عاطفة العمل متضامناً متكاملاً يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، مع أن له عقلاً مفكراً وبصيرة نيِّرة؟.

هذه أسئلة، يتشوَّق كلّ امرئ إلى جوابٍ شافٍ عنها:

- في الإنسان عقل ونفس يتنازعان هذا المخلوق، وكلّ واحد منهما يبذل جهد الطاقة ليكون له الفوز عليه: فأوّلهما يدعوه ليكون إنساناً كلَّ الإنسان، فيحسِّن له الخير، ويهديه طريق الصواب، ويحذِّره موارد

الهلكة. وثانيهما يريه الخطأ صواباً، والسراب ماءً، ويحسِّن له سوء عمله، فيراه حسناً، فإذا غلب العقل النفس فسار الإنسان في مهيع الحقّ، وعمل ما خُلِق لأجله، فذلك هو الإنسان الكامل، ذو العقل الراجح. وإذا غلبت النفس العقل، فاتَّبَع الإنسان أوامرها، وصار قيد نواهيها، فذلك هو الحيوان الأعجم، في صورة الإنسان المكرَّم.

«كلّ مولود يولد على الفطرة» تلك قاعدة عظيمة لمانحن في صدده، فالإنسان يولد طاهراً مبرَّأً من كلّ عيبٍ، نقيّاً من كلّ شائبة. وإنَّما ينحرف عن الجادّة، وينطبع فيه ما لم يُخلق لأجله ما تلقَّنه من التعليم، وما ينغرس فيه من التربية. فعلى التعليم والتربية مدار ترقّيه أو تدنِّيه. فهما قطب سعادته وسعادة أمّته أو شقاؤُهما، وعبثاً نحاول النهوض بالأمّة، وسدًى نضيّع الأوقات في تحسين حالتها، إذا كان السلّ الاجتماعي- ألا وهو فساد التربية- فاشياً في جسمها، عاملاً على إضنائها وإنحالها.

فإصلاح التربية، والعمل على تهذيب الأخلاق، والسعي وراء تنقية الأدران المعنوية هي العامل الأكبر على إماتة داء الاجتماع.

يُنَشَّأُ الطفل على الاسترسال في الهوى، ويُعَوَّد الكسل، ويروَّض على الجبن والضعة، ويُطبَع على الذلّ والخنوع، ويُقسَر عَلَى أن يتكلَّف ما ليس من طبعه ، حتى إذا ما شبَّ أُلقِيَ حبله على غاربه، وأُطلق له السراح فيرى من مفاسد البيئة التي تحيط به مالم يكن يرى، ويشاهد ما يدعوه إلى الانغماس في حمأة أوضارها، فكيف، بعد هذا، يرجى أن يكون خادماً للأمّة، أو يؤَمل منه أن يكون- على الأقلّ- أميناً على نفسه؟

أمّا لو نُشِّئ على الفضيلة، ورُبِّيَ على الشجاعة، وعُوِّد أن يكون رجلاً، منذ

الصغر، ورُوِّضّ على الخير والأخلاق الكريمة، وطُبِع على النفور من الرذيلة، حتى يكون ذلك خُلقاً من أخلاقه، فإنه متى شبَّ وخاض غمرات الحياة، فلا خوف عليه من تيّارها، لأنه يكون قد أخذ لمثل هذا الأمر أُهْبَته، لا كمن طلب البِراز وهو أعزل، ولا مجَنَّ يقيه الصدمات، ولا سيفَ يدفع عنه الملمّات.

فسُلُّ الاجتماع فساد التربية، ودواؤه إصلاحها، وتعهُّد النشء بالمحافظة عليه، ومراقبته مراقبة الزراع لزرعه والصانع لعمله. فكما أن الحارث يتعهَّد حرثه إلى أن ينمو ويثمر فيُتَمتَّع بثمراته، وكما أن الصانع يفرغ الجهد ليكون عمله متقناً فيُنتَفَع بخبراته، فكذلك يجب على المربّي أن يتعب وينصَب، ويتعهَّد من سُلِّم إليه أمر تربيته وتهذيبه، لينشأ مرباه على أحسن صورة من صور الكمال، فيكون منه الخير والبركة لوطنه والناس أجمعين. قال الإمام الغزالي (عليه الرحمة): «إن الولد أمانه عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية من كلّ نقش وصورة، فإن عُوِّدَ الخير وعُلِّمَه نشأ عليه وسُعد في الدنيا والآخرة، وساعده في ثوابه أبواه وكلّ معلِّم ومؤَدِّب. وأن عُوِّدَ الشرَّ وأُهمل، شَقِيَ وهلك، وكان الوزر في رقبة ولِيِّه والقيِّم عليه».

فمرض اجتماعنا- أيُّها القوم- مزمن، ولا دواء له إلّا التربية الحقّ التي تُصلح النفوس، وترأَب صدوع مجتمعنا، الذي انهالت عليه معاول فساد الأخلاق، من كلّ جانب.

ولا أعني بالتربية إلّا التربية الوطنيّة الصحيحة التي تحفظ لنا أخلاقنا وآدابنا وعاداتنا ومميِّزاتنا، مع اقتباس ما نراه حسناً من مدنيّة القوم الذين سبقونا في ميدان الحياة أشواطاً، هيهات أن نلحقهم فيها، إلّا إذا

طرحنا الخمول، ونبَذنا العصبيّات الجاهلية نبذَ النواة، ولم نتَّخذ لنا رائداً إلّا حبّ الوطن، ولم نجعل لنا قائداً إلّا المصلحة العامّة.

.....

فهيّا- أيُّها القوم- إلى ثورة عامّة، ينكشف دجاها عن تغيير في الأخلاق، وينجلي نقعها عن تبديل في أوضاع حالتنا الاجتماعية، فنُخلق، بعد ذلك، خلقاً آخر، ونحيا حياة ثانية، ونُنشَّأ إنشاءً جديداً.

قد نلنا الدستور وقبضنا على أزمّة الحرّيّة، فظننّا أننا بلغنا من المدنيّة مكاناً قصيّاً، ووصلنا إلى حياة، ما بعدها مطلب لطالب، ولا مرغب لراغب، ثم ما لبثنا أن استيقظنا من منامنا، وقمنا من سباتنا، فإذا نحن على فراشنا، وأيدينا على وجوهنا، نمسح بها قذى عيوننا، فعلمنا أن الدستور قد زارنا في المنام، وأن الحرّيّة قد نلناها في الرقاد، وأيقنّا أن كلّ ما رأَيناه كان حلماً من الاحلام، لأن كلام الليل يمحوه النهار.

أجل، كلّ ذلك كان؛ لأننا صرفنا معنى الحرّيّة إلى غير وجهه، وفهمنا من الدستور ما لا يفهمه غيرنا منه؛ لهذا، لم نرَ من آثاره ما كنّا نأمل، ولم نجنِ من ثماره يانعاً.

ذلك لأن جماهير الأمّة لم تستعدّ لهذه النعمة الكبرى، وليست أهلاً لتلك الهديّة الفضلى، لأن اخلاقها مريضة، وعقولها مسلولة، فهي ترى الصالح طالحاً، والخير شرّاً والإيمان كفراً، والنور ظلاماً.

فلو أن الأمّة لم يكن فاشياً فيها «السلّ الاجتماعي» الذي أَنهك قواها،

وبدَّد أخلاقها، فكم كنا جنينا، في هذه المدّة، من يانع الخيرات، وعملنا من الأعمال الصالحات!.

.....

فالبدار البدار، أيُّها القوم، وتعاونوا على مداواة هذا السلّ بالتربية والتهذيب ونشر التعليم الصحيح وتأليف الجمعيّات التهذيبية لإرشاد العامّة، وتقويم ما اعوَجَّ من أخلاقهم، وإصلاح ما فسد من تربيتهم، فإن بذلك نجاح الأوطان، وإعلاء رأيه الأمّة، ولا إخالكم إلّا فاعلين. والله الموفِّق والمعين.

القول والفعل

تمرّ الشهور، وتنقضي السنون، ويحيا، بانقضائها، أقوام، ويذهب آخرون، والكلّ يصيحون، ويقولون فيبالغون، وفي كلّ وادٍ من الموضوعات يهيمون، وفي سوء حال قومهم يتفكّرون، وبأعمالهم يندِّدون، وعاقبة أمرهم يندبون، غير أنهم- على رفعهم ممّا هم فيه- لا يقدمون، وبيدهم لا يأخذون، وبرقيِّهم لا يحفلون، وهم عليهم يتحرَّقون، وليلَ نهارَ في ذلك يتكلَّمون، غير أنهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون.

كلّ بناء محتاج، في ثبوته، إلى أساس محكَم كما تفتقر النتائج إلى

المقدِّمات، وأساس الفعل القول، وعلى هذا الأساس تقام هياكل الأفعال، فالقول مقدمّة، والفعل نتيجة، ولا تكون النتيجة مركوناً إليها ومعتمداً عليها، إلّا بعد النظر في صحّة المقدِّمات، كما لا يعبَأُ بالمقدِّمات إذا لم تكن لها نتيجة يرتاح إليها العقل، ويسلِّم بها.

وإذا نظرنا إلى أقوالنا وما تُحبِّره أقلام كتَّابنا نجد أن الأقوال أعراض سيّالة تنقضي بمجرد النطق بها، ونرى أن الكتابات هي، كما يقول المثل العامّي، «حبر على ورق»؛ فلا نتيجة لقول أو كتابة ولا تأثير لهما. وكلّ مقدِّمة لا نتيجة لها، فهي غير معبوء بها، فأقوالنا وكتاباتنا خالية من النتيجة معدومة الفائدة، لأنها لا تتعدّى حدّ الزخارف والتزويق، ولا يعمد أصحابها إلى استنتاج ثمراتها واستخراج نتائجها، فلها- إذن- ذلك الحكم نفسه.

قلنا فأطنبنا، وخطبنا فأجدنا، وكتبنا حتى ملأَنا الطروس وسوّدنا صفحات الجرائد، ولكن، أيّ أثر أحدثت تلك الخطب؟ وأيّة فائدة أفادت هاتيك المقالات؟ هل صنعت معملاً لحاجيّاتنا، أو أقامت هياكل لما دُثِر من مجدنا؟؛ فأقوالنا غير صادقة لكذب نتائجها، ولا يصدقُ القول حتى يصدقَ العمل.

دعونا من الأقوال، وخذوا بأيدينا إلى صالح الأعمال، وانهضوا بالأمّة من هذه الوهدة العظيمة التي هي ساقطة فيها، وأنيفوا بها على يفاع العلوم النافعة والصناعات الجليلة.

كنّا إذا طلبنا من أحد أن يبذل ما له في سبيل خدمة الوطن؛ من إنشاء المعامل وترقية الصناعات، يقول: أنّى لنا ذلك، والضغط مستولٍ على

العقول والأفكار، والقيود محيطة بالأيدي والأرجل، والجواسيس منتشرة في كلّ ناحية؟ أمّا الآن، فأيُّ عذر لنا بعد أن رُفِعت عنا تلك الأغلال، وانقشعت هاتيك الظلمات؟ أما- والله- ما لنا من عذر سوى البخل والإهمال والكسل. وقد ظهر، ظهورَ الشمس، أن تلك الأقوال لم تكن تتجاوز الشفاه، وليس مصدرها سوى اللسان، وما للقلب أقلُّ تفكُّر فيها قبل أن كنّا نلفظها.

أيّ حرج على متموِّلينا لو سعوا إلى تأليف شركات صناعية، ودفعوا جزأً من أموالهم مساهمةً، فكان من ذلك رأس مال عظيم، يصرفونه في هذه السبيل التي تعود بالمنفعة العامّة، عليهم وعلى البلاد وأهليها.

إن لدينا أموالاً كثيرة، ولكن يُعوزنا رجال مفكِّرون، وقوم يؤثرون المنفعة العامّة على المنفعة الخاصّة، ويبذلون كلّ ما في وسعهم وطاقتهم لإنجاح البلاد وترقيتها، ولا نجاح لها إلّا بالعلم الصحيح، والتربية الحقّ، والصناعات النافعة والزراعة التي بها حياة الشعوب والبلاد، فمتى وُجد لدينا هؤُلاء الرجال واهتمّوا بما قدَّمناه فحدّث- ولا حرج- عمّا نناله من التقدُّم والنجاح.

لدينا رجال فيهم الصفات المطلوبة، بل فيهم فوق ما نتصوَّره من المقدرة على الأعمال، والتفكير الذي يأتي بالنتائج المطلوبة، غير أنهم لا يريدون أن يجهدوا نفوسهم ويتعبوا أفكارهم في ذلك، فهم تاركون الأمور لطبيعة الحال. وإن وُجِد فيهم من يريد أن يخدم، ويحبّ أن يبذل الجهد في رفع أمّته وتشييد المدارس والمعامل وغير ذلك لنستغني عن الأغيار، فهو ضيّق ذات اليد، فارغ الجيب، رأس ماله قوله وفكره، وأيّة فائدة من القول والتفكير، إذا لم تعضِدهما الدنانير؟

رجال الأقوال عندنا كثيرون، غير أنهم مفلسون، ومن المال خالون، وفي تحصيل ما يسدُّ عوزهم يجتهدون، وفي غير ذلك لا يتفكّرون، فهل هم معذورون؟ بلى- وربِّك- إنهم لمعذورون، وإن عملوا غير ذلك فهم مخطئون، ومن يقولون غير هذا فهم لا يعقلون، أو هم على الناس يموّهون، فاتّقوا الله- أيُّها المستغنون- واعملوا على تشييد المعامل وإنشاء المدارس، فإنكم- إذن- لمفلحون، فالله يطالبكم والناس، وإن احتجتم إلى آراء المفلسين وأقوالهم فادفعوا إليهم ما يستعينون به على سَدّ ما يتقاضاهم من أمور المعيشة، وهم يمدّونكم بالأفكار، ويعينونكم بالآراء، وبذلك يتمّ التعاون، ويحصل الاتِّحاد: «وتعاونوا على البرّ والتقوى».

وأمّا إن بقينا، كما نحن الآن؛ (أقوال بلا أعمال)، فعلينا السلام.

فاتّقوا الله، أيُّها القادرون على إنجاح الوطن، المتشدِّقون في كلّ مجلس بما يلزمنا من الإصلاحات التي لا يتمّ عمل بدونها: ابذلوا جهدكم، وافتحوا خزائنكم، وازرعوا ليراتكم في هذه الأرض، فتعود عليكم وعلى أبناء وطنكم المحبوب بالربح الجزيل والخير العميم.

أراكم تنظرون إليَّ- أيّها الخطباءُ والشعراء والكتّاب- شزراً، وترمقونني بعين الانتقاد، ثم أراكم، ثانيةً، أجمعتم رأيكم قائلين لي: أَلستَ منّا؟ أما خطبت كما خطبنا؟ أما كتبت كما كتبنا؟ أما نظمت كما نظمنا؟.

- بلى، أيّها الأخوان. وما أدراكم أني استثنيت نفسي من مجموعكم، وبرَّأْتها ممّا نسبته إليكم؟: «وما ابرِّئُ نفسي. إن النفس لأمّارة بالسوء، إلّا من رحم ربي».

ورُبَّ قائل: إن المتكلِّم لا يدخل في عموم كلامه، كما قرَّر ذلك علماء الأصول، فأقول: إنه لايدخل وجوباً، بل يجوز دخوله وعدم دخوله. وأنا داخل في باب الجواز، وقد جزت هذا المجاز.

فسدِّدوا- رحمكم الله- الأقلام، وأشرعوا في وجوه الطروس اليراع، وقاوموا، في سبيل الإصلاح الحقيقي، كلّ معاند وممانع، وحرِّضوا المتموِّلين على بذل الأموال في إنشاء المعامل، وإيجاد الوسائل التي تُغني الوطن عن الأغيار، ولنرفع من قلوبنا كلّ خلق يدعونا إلى أن نكتب ما لا نعتقد، ويحملنا على عدم الاعتراف بالخطأ، إن صدر من أحدنا؛ فما القصد من الكلام والخطابة والكتابة إلّا إحقاق الحقّ ليُعْرَف، وإبطال الباطل ليُنْبَذ. ولنجعل أقوالنا عنواناً لأفعالنا، وأفعالنا مصداقاً لأقوالنا؛ إذ لا يصدق القول حتى يصدق العمل.

والسلام على من يقول الحقّ ويعمل به، ويسعى، بكلّ ما في وسعه، لخدمة أمّته ووطنه. ولا سلام على من يقدِّم الغاية الشخصية، التي تضرّ بالمجتمع، على المنفعة العامّة.

والخلاصة أننا نحتاج إلى قول فعمل؛ فالعملَ العملَ العمل.

الفهرس

مقدّمـة 7
نهج البلاغـة 25
أيُّهـا الإنسـان 31
قَحْـط رجـال، أم قَحْـط وجـدان؟ 39
التربيـة أسـاس النجـاح 43
- في التربيـة وفضائلهـا 43
- تربيـة الأخـلاق والشـعور (التربيـة المنزليـة) 46
- التربيـة المدرسـية 51
- وسـائل التربيـة في دَوْرَي الأسرة والمدرسـة 52
- التربيـة العلميـة 54
الأنانيّـة وحـبّ الـذات 59
رجـال الإصـلاح 69
- مَـن المُطالَـب بالإصـلاح؟ 72
الإرادة 77
الألقـاب والرُّتَـب 85
حديـث مـع النابتـة 91
الانتقـاد ومشـارب المنتقِديـن 101
- مشـارب المنتقِديـن 104
- اتِّبـاع الحـقّ متـى وَضُـح 106
- خلاصة شروط الانتقـاد 107
سـعادة الحياة 111
- سـعادة المرء في نفسـه 114
- سـعادة المرء في صَحْبه 121
- أقـوال في هذا البـاب 128
دلائـل التوحيـد 133
- المـال والـشرف 135
- الاسـتقلال الشـخصي أو الاعتمـاد عـلى النفـس 136
القابليّة والفاعليّـة 147
- الثـورة الأدبيـة أو ثـورة الأخـلاق والمبـادئ 15
2 - السـلّ الاجتماعـي 162
- القـول والفعـل 173

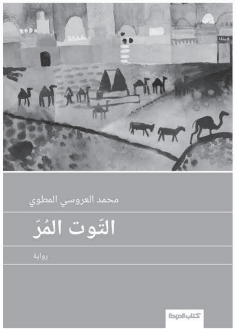
صدر من سلسلة كتاب الدوحة

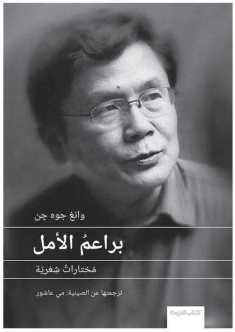
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم – بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين – أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة – مختارات شعرية – الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حريّة الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم – مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
--	فتنة الحكاية جون أديك – سينثيا أوزيك – جيل ماكوركل – باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر – مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري

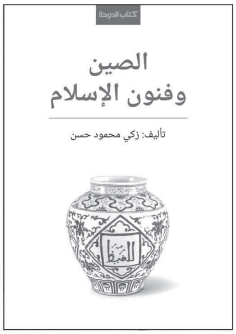
33	سراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حمّيش
36	حي بن يقظان – تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة – ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال – مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف – رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل – ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحـوُّلات الصـفـوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت ترجمة وتقديم: بوداود عمير
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
55	مأساة واق الواق	محمد محمود الزبيري
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللغة والآداب والفنّ والحضارة)	مي زيادة
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	قسم التحرير «مجلة الدوحة»
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (١٩٣٢) تحقيق: رشيد العفاقي	أليكسي شوتان –تعريب: عبد الكريم أبو علو
59	قيصر وكليوبترا	إسماعيل مظهر
60	الصين وفنون الإسلام	ذكي محمود حسن
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكيلوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ عوض بك
65	التلـــــمِيذ	پول بُورجيه
66	مَلحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر

صدر في سلسلة كتاب الدوحة













يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com

هذا المجموع هو أحسن مثال حسّيّ ينطق بحالة صاحبه الروحية، فإنه طرق باب التربية النظرية في مقالة «أيُّها الإنسان»، كما طرق التربية العملية في مقالة «التربية أساس النجاح»، فجمع بين التربيتَيْن، وفاز بالحُسنيَيْن. وقد انتقد الأخلاق والعادات في مقالة «العادات»، وبَيَّنَ كيف تكون الحياة سعيدة في مقالة «سعادة الحياة»، وفصَّلَ كيان هذه السعادة في مقالة «الثورة الأدبيّة أو ثورة المبادئ والأخلاق». ولم تقتصر كتابته على الأخلاقيات، بل أصابها رشّاش من السياسيات في مقالة «مجلس الأمّة» و«قحط رجال أم قحط وجدان؟»، وغيرهما. وكأني به يحاول أن يدخل في غمار كلّ بحث، ويطرق كلّ باب.

وبالجملة، فإن هذا المجموع جدير بأن يقتنيه النشء، ويطالعوه، ويعملوا بما فيه من الفوائد الثمينة؛ فإنها كنز لا يفنى.

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة

www.aldohamagazine.com